رواية

الهاربة سارة

في داخل الأوراق.. كواليس موثقة.. لأحداث لا تصدق!

حزام بن راشد

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
الطبعة السابعة

"تنويه"

معظم الأحداث في الرواية مستوحاة من الواقع..

وهي مثبتة بطريقة أو بأخرى..

سواء في وسائل الإعلام العالمية أو المحلية..

وأي تشابه بالأسماء داخل هذه الأوراق

هو بمحض الصدفة!

خلال تنقلاتي في السفر..

كل من يجلس معي..

يسمع مني نفس الآراء التي أكتبها

سياسياً واجتماعياً وفكرياً وحتى دينياً..

فالمقابل معظم من أتناقش معهم..

يقولون شيئاً..

ويكنون شيئاً..

ويكتبون للجمهور شيئاً آخر!!

ومع كل هذا التناقض البشع..

يجدونني أتقبل ضعفهم وجبنهم..

وأجدهم يمتعضون من وضوحي وشجاعتي!

إهداء

أنا لا أكتب من أجل التسلية..

أنا أكتب كي لا أتحدث مع نفسي كالمجنون

كي لا أموت من الداخل بسببكِ وأفقدني!!

إهداء

كدت أن أخسر كل شيء..

حتى ظهرتِ من غير توقيت على هيئة ملاك!

لن أنسى..

مهم جداً..

أعتقد أنه ليس على القاص أو الشاعر مطلقًا
أن يقدم أية تفسيرات لعمله، فالنص بمثابة آلة تخيلية
لإثارة عمليات التفسير..
وعندما يكون هناك تساؤل بخصوص نص ما،
فمن غير المناسب التوجه به إلى المؤلف.

أمبرتو إيكو

البدايات السيئة..

تُخبرنا عن شكل المستقبل الذي ينتظرنا!

الآن.. هذه اللحظة هي أفضل اللحظات للهروب!

والدتي وأختي الكبرى نائمتان، بعد كل هذا الإرهاق..

أما أخي الذي يصغرني سناً.. لم يعد بعد من أنطاكيا..

بعد أن ذهبَ برفقة أصدقائه..

المؤكد أنه سوف يصل اليوم في أية لحظة، كما أخبرتنا والدتي بذلك..

لم يتبقَّ على إقلاع الطائرة سوى أقل من ثلاث ساعات فقط!

حقيبتي الصغيرة جاهزة، لا أحتاج سوى إلى بعض الملابس والمال وجواز سفري الأخضر.. الذي يرفض أخي بقاءهُ معي..

لم أتردد في سرقته حالاً، عندما سنحت لي الفرصة هذهِ الليلة..

خرجتُ بهدوء، كما لو أنني نسمة هواء..

كنتُ أسير على أطراف أقدامي؛ كي لا يسمع خطواتي أحد..

أغلقتُ الباب بهدوء.. الممرات في الفندق كانت هادئة أيضاً..

توجهتُ بسرعة نحو المصعد..

لم يستغرق صعوده إليّ سوى دقيقة.. كانت أشبه بالساعة الكاملة..

دخلتُ مباشرة.. مسافة النزول فقط.. ووجدتُ نفسي في الشارع..

التفتُّ يميناً ويساراً؛ خوفاً من عودة أخي، واحتمال مصادفته لي..

لكني لم أجدْهُ.. تقدمتُ مسرعةً حاملة حقيبتي الصغيرة..
وركبتُ مع أول سائق أجرة وجدتهُ أمامي.. ثم طلبتُ منه التوجه نحو المطار.. مطار مدينة اسطنبول..
وصلتُ المطار.. شعرتُ بحالة غريبة.. دُوَّار أو غثيان..
لا أعلم كيف أصفُ ذلك الشعور الغريب!..
لأول مرة أجدُ نفسي أقف عند مدخل المطار.. ولوحدي!
لم يسبق أن حصلَ لي ذلك داخل بلدي.. ولم أتخيل ذلك مطلقاً..
فكيفَ بهذه المرة.. في مطار أجنبي!
توجهتُ مرتبكة نحو العاملين، وسألتهم بلغة الإشارة، وببعض ألفاظ لغتهم الانجليزية المكسرة.. فأنا لا أجيد اللغة أبداً..
سوى بعض الكلمات البسيطة والمتعارف عليها..
كالتي نستخدمها عند طلب القهوة مثلاً..
أو السؤال عن أحوال الشخص أو عن اسمه..
وصلتُ إلى المكان المناسب.. كنتُ أحرِّكُ عينيَّ بشكل مستمر..
خوفاً من أهلي.. أو من أي شيء قد يُفسد مغادرتي..
فكم من الخطط المحبكة.. أفسدتها ثغرة تافهة!

لم أُنهِ التلفت والنظرات الحذرة، حتى ختمتُ جواز سفري، وتوجهت نحو صالة المغادرة.. وجلستُ بالقرب من البوابة المخصصة لرحلتي..

منتظرةً الفرج.. لا فرجَ في تلك اللحظة، إلا خلف تلك البوابة..

التي لم تتحرك عيناي عنها.. منتظرة منها أن تفتح لاستقبالي..

فجأة رنَّ هاتفي النقال، وفُجع قلبي مع رنَّته المفاجئة!

إنها والدتي!!

مخيفة تلك اللحظات.. التي نعتقد فيها بأن من يتصل بنا..

يشاهدنا من زاوية لا نراه منها.. ويختبر ردة فعلنا!

لم أُجب عليها.. بقيَ على إقلاع الرحلة قرابة الساعة والنصف..

تكرَّرَ اتصالها ثلاث مرات.. كان لا بدَّ من أن أجيب عليها؛

كي لا يتفاقم الأمر.. ومن ثمَّ أخسر كل شيء..

والأهم.. كي لا يقضي القلق على تماسكي المتهالك خوفاً..

لذلك.. قررتُ حينها أن أذهب إلى دورة المياه..

فهي أكثر الأماكن هدوءاً من إزعاج نداء الرحلات المتكرر..

ذهبتُ.. ثم اتصلتُ معها بنفسي..

كانت غاضبة جداً، وقلقة بشكل لا يُوصف..

سألتني:

- أين أنتِ يا ملعونة؟!
- قريبة جداً من الفندق، خرجتُ كي أبحثَ عن الطعام..
- ومنذ متى وأنتِ تختارين الخروج لوحدكِ؟!
- لقد وجدتكِ نائمة، والمطعم قريب جداً، ولم أكن أرغب أن أفسد راحتكِ يا أمي.. سأعودُ خلال ربع ساعة..
- سوف تدفعينَ ثمن فعلتكِ هذه أيتها الغبية.. ولستُ مسؤولة إن عاد أخوكِ (مازن) وأنتِ ما تزالين في الخارج..

هكذا تخاطبُني والدتي العزيزة دائماً..

بشتائم تكاد لا تنقطع..

لا يهمني ما قالته، طالما أنها صدَّقت كذبتي..

حوَّلتُ جهازي إلى وضعية الصامت.. وقررتُ أن أتجاهل أيَّ اتصال قد يصلني حتى أصعد إلى الطائرة..

فمهما تأخرتُ.. سوف تعتقد أنني ما أزال أنتظر طلبي في المطعم..

مرَّ الوقت ببطء مستفز ومُقلق.. حتى فُتحت البوابة..

كانت حينها بالنسبة لي.. أشبه ببوابة الجنة!

توجهتُ نحوها مسرعة، ووقفتُ في الصف حتى حان دوري..

مررتُ بسهولة.. أصبحتُ في النفق الموصل إلى الطائرة..

كانت قدماي تسحباني سحباً.. كما لو أنَّ حذائي مملوءٌ برمل..

وقبل أن أصل إلى باب الطائرة..

صرخ أحدهم مكرراً:

- سارة.. سارة.. سارة!

كدت أن أفقد توازني من الرعب الذي اغتالني فجأة!!

التفت إلى الخلف ولا أعلم ما ينتظرني..

كان رجل أمن وبرفقته موظف البوابة الذي قام بختم جوازي!

سألني بلغته التركية وبأسلوب جاف..

لم أفهم أي شيء.. أوشكت ملامحي على التحنط كاملة..

قبل أن يتدخل أحد المسافرين ويقوم بترجمة ما يقوله مبتسماً:

- يسألكِ عن اسمك الثلاثي..

أخبرته بذلك وأنا في أتعس لحظاتي..

نظر إليّ.. ثم قدم لي جواز سفري مبتسماً وتحدث ببعض الكلمات..

ترجمها لي نفس الشخص قائلاً:

- يخبركِ بأنك لم تستلمي جوازكِ بعد مرورِكِ من البوابة.. ويطلب منكِ الحذر والمحافظة على سلامة إثباتاتكِ..

عادت إليّ أنفاسي بعد أن ظننت بأن كل ما خططت له قد فشل..

وشكرته على مساعدته وشكرت الموظف على خدمته..

ثم دخلتُ.. توجهتُ نحو مقعدي.. جلستُ.. ربطتُ الحزام..

لم أستوعب شيئاً.. كان أشبه بالحلم الثقيل..

عادت والدتي إلى الاتصال، ولم أجب عليها.. تكرَّر ذلك كثيراً..

فجأةً ومن دون أن أدرك.. تحركت الطائرة.. نحن في الهواء!

هل يُعقل: أنا أطير!.. لوحدي!.. تاركة أهلي!!

نظرتُ إلى النافذة.. شعور غريب ينتابُني: تمنيتُ أن أعود..

لكن لا فائدة.. بكيتُ قليلاً.. الحقيقة لقد بكيتُ كثيراً..

معظم فترات الرحلة كنتُ أبكي.. لم أستطع حتى النوم..

فأصعبُ اللحظات وأكثرُها رعباً..

هي تلك اللحظة التي تقررُ فيها تركَ كل شيء تعرفه..

والإقدام على أشياء وتجارب لا تعرفها!

إنها رحلتي إلى المجهول.. إلى دولة (كندا)!

سأخبركم عن قصتي منذ البداية..

وعن كل ما أجبرني على اتخاذ قرار مجنون كهذا..

قرار الهروب!

أنا سارة.. عمري الآن ثلاثٌ وعشرونَ سنة..

هربتُ من عائلتي عام 2017..

وأنا في سن الحادية والعشرين تقريباً..

لعدة أسباب.. قد يراها معظمُكم أسباباً غير مبررة..

ولكنها بالنسبة لي، كانت مدمرة لكل جميلٍ في داخلي..

أنا ابنة أسرة سعودية.. تعيش في مدينة الرياض..

عدد أفرادها خمسة أشخاص بمن فيهم أنا..

أنا، ووالداي.. وأختي فرح التي تكبرني عمراً..

وأخي مازن.. الذي يصغرني بسنتين تقريباً..

عائلة صغيرة.. يُفترض أن تكون سعيدة، أليس كذلك؟

لكن ماذا لو كانَ وليٌّ أمر هذه الأسرة غيرَ سويٍّ؟!

والأكثر سوءاً منه.. والدتي..

صاحبة اللسان السليط، والعصبية المفرطة؟؟

لا أنكر بأنَّ حالتنا المادية متوسطة ومستقرة..

ولكنَّ حالتنا النفسية وهي الأهم بالنسبة لي.. تحتَ السيئة بمراحل!

المُسكرات رديئة الصنع.. لا تفارق مكتب والدي في منزلنا..

ومنذ أن وعيتُ على هذه الدنيا، لم أشعر يوماً بأنه شريك حياة والدتي!

كانت علاقتهما الزوجية تشعرنا بأنها مبنية على المصالح فقط..

علاقة روتينية مملة بشكل واضح..

الحقيقة تقال، بأنَّ المسؤولية بمعظمِها كانت على عاتق والدتي..

هي من تؤمِّن أبسط احتياجات المنزل..

من مؤونة غذائية، أو ملابس، أو تسديد لفواتير الكهرباء والماء!

والدي لم يكن عليه سوى توفير المال، وتسليم المصروف الخاص بنا إلى أمي.. فقط..

بالنسبة إلى علاقتهما بنا.. كانت أشبه بعلاقة مُدراء عمل..

لا يعرفون الرحمة، ولا الإطراء ولا حتى النصح!

كنت أحبُّهما محبة فطرية.. كمحبة أية طفلة لوالديها..

حتى وصلتُ إلى سن التاسعة، وأنا في المرحلةِ الابتدائية..

كنتُ أخشى لحظة الانصراف من المدرسة!!

لأنَّ والدي كان هو من يأتي ليأخذني، ويأخذ أختي فرح..

كثير من المرات كان يوبّخُنا؛ بسبب تأخُّرنا في الخروج..

وفي بعض الأحيان يشتمُنا في العلن وأمام الناس..

نقطة التحول التي كانت بالنسبة لي كالصدمة النفسية..

هي عندما سحَبني من شعري سحباً؛ بسبب تأخري في الخروج وقت انصراف الطالبات.. تأخرتُ لمدة خمس دقائق فقط!

لا يهمُّني شدُّه لشعري.. فليست المرة الأولى ولا العاشرة..

ماكسرَ قلبي الصغير وقتها.. أنني بينما كنتُ أبكي، وأحاول فكَّ يده الكبيرة والقوية من قبضتها على شعري الناعم والقليل..

وقعتْ عيناي على أعز صديقاتي في الصف!

(ريناد).. صديقتي الطالبة التي أحبُّها وتحبُّني، وتجلس بجانبي في الصف.. كانت تمسك بيد سائقها الآسيوي، وتنظر إلى المشهد بصمت وبصدمة.. ولكنها حتماً ليست كحجم صدمتي!..

حاول بعض الآباء تهدئة والدي.. ولكنه بصقَ أمامهم جميعاً..

فالنَّزق الذي يتمكن منه أثناء غضبه.. يجعلُ الآخرين يتجنبون مجادلته أو التدخل أكثر من الحد المسموح به..

(فرح) أختي الكبرى، تلقت صفعة على وجهها، وتمالكت نفسها دون بكاء.. فكانت تتبعني وهي صامتة ومسرعة، دونَ ردَّة فعل..

ذلك اليوم هو أسوءُ أيام حياتي.. وأبشعُ ذكرياتي!!

قد يكون أمراً بسيطاً بالنسبة لكم..

ولكن وقعهُ في نفسي وقعٌ لا يوصف..

عدتُ إلى منزلي، كي أتوجَّهَ إلى حضن والدتي..

لكي تحميني من والدي.. لكنها كانت في صفِّه!

على الرغم من جدالها القصير معه.. إلا أنها نظرت إليَ

بعدما أخبرَها عن فعلتي التي أراها بسيطة جداً.. فقالت:

- تستحقين أكثر من ذلك.. لماذا تتعمَّدين التأخر؟

لم أردَّ عليها سوى بالبكاء..

والذهاب إلى غرفتي برفقة أختي، التي حاولت مواساتي..

كرهتُ المدرسة.. ولم أكن أتخيَّل أنني سأشاهد صديقتي (ريناد) غداً، بعد الذي حصل أمام عينيها..

كم هو مؤلمٌ إحساسُ الخجل.. عندما يُدمج بإحساس الذلّ والانكسار!..

هذه الحادثة، كانت نقطة تحول في شخصيتي!
وحتى في علاقتي مع والدي..
لاحظتُ مع الوقت كيف أصبحتُ فتاة متمردة وعدائية..
لا أنسى اليوم التالي..
عندما كنتُ أرفضُ الذهاب إلى المدرسة، بذريعةِ أنني مريضة..
وأبكي بقوة متوسلة أمي.. ولكنها كانت ترفضُ وتصرُّ على ذهابي.
حتى أتى والدي وقام بضربي.. ثم بإجباري على ارتداء ملابسي
وأخذي إلى المدرسة.. برفقة أختي فرح..
كل ما فكَّرتُ به طوال بكائي، ومن ثم ضربي، ومن ثم ارتدائي
لملابسي.. أمرٌ واحد فقط.. صديقتي ريناد..
للأسف، دخلتُ المدرسة ذلك اليوم من دون أن يُسرَّح شعري
جيداً..
كان شكلي مُلفتاً.. حتى الدموع قد تركت أثراً واضحاً على وجهي
وقفتُ في آخر الطابور منكسةً رأسي؛ كي لا يلاحظني أحد..
ثم دخلتُ إلى الصف متصنعةً الابتسامة.. وشاهدتني ريناد حتى
جلستُ بجانبها.. ثم سألتني ببراءة بعد صمت قصير:

- هل أنتِ بخير؟

ابتسمتُ لها مرتبكة، ثم قلتُ:

- نعم، نعم، بخير.. وأنتِ؟

- أنا بخير طالما صديقتي (سارة) بخير..

ولم نتحدث أو نلهو بعد تلك المحادثة طوال اليوم.. تخيَّلوا!
كانت ريناد مُحرجة مني.. وتحاول التظاهر أمامي أنها عفوية..
ولكنها كانت تتردد في الحديث معي.. لأنَّ حالتي محبطة..
فدموعي تحاول أن تفضحني.. وأنا في كل مرة أحاول مداراتها..
للأسف.. كنتُ ألاحظ أنها كانت تلاحظ ذلك..
ليس هذا المؤلم لي فحسب..
بل إنَّ المؤلم.. استمرار هذا الحال طوال فترة الفصل الدراسي!!
حتى أصبحتْ علاقتي معها أشبه بالعلاقة السطحية..
لا أعلم لماذا حصلَ هذا كلّه!.. فحدثٌ كهذا أكبر من أن يستوعبه
عقلي البسيط.. ولكنهُ وقع.. وترك أثراً ليس بالسهل في نفسي..
لن أطيل في تفاصيل حادثة قد يراها بعضُ الناسِ تافهة..
وسأكملُ ما حصل لي في سنوات حياتي التالية..

مرَّت السنوات ولم يتغير حالُ أسرتنا..

بل كان يتفاقم كلما كبرْنا..

خصوصاً أننا أصبحنا نتجادلُ مع والدانا فيما يقوله..

بعد أن كنا نستمع فقط، ونخضع..

أخي الأصغر مازن كان متمرداً وعنيفاً بشكل مستفزّ..

وعندما كبرَ.. لاحظنا أنَّ والدي أصبح يخشاهُ بسبب قوة جسمه!

وبالتالي كان يُفرغ غضبهُ عليّ أنا وأختي..

ولكن لا أنكر أنَّ والدي كان كريماً.. بالمال فقط.. لا بالمشاعر..

ووالدتي على الرغم من عيوبها كلَّها..

إلا أنها كانت تهتمُّ بالجانب التعليمي لنا بشكلٍ ملحوظ..

وأما من الناحية الترفيهية..

فقد كنا نسافرُ داخل أرجاء المملكة على فترات متقطعة.. وذلك أثناء إجازتنا الصيفية.. ولكن كلّ هذه الشكليات لم يكن لها طعمٌ في ظل تلك البيئة الأسرية غير الصحية داخل منزلنا..

استمرتْ حياتنا، وتراكمت الضغوطات عليّ وعلى أختي..

شخصيتي كانت تختلف تماماً عن شخصية أختي الكبرى فرح..
حيث كانت طيبة جداً، ومتعلقة بأمي على الرغم من كل شيء..
ربما لأنها لم تعشْ حادثة مفصلية؛ أحدثت اهتزازاً في داخلها كما
حصل معي ومع صديقتي التي فقدتُها.. ريناد..

للأسف أقولها وبحرقة..
سبب ضياعي في دوامة المصائب.. هو أخي مازن..
كان يعاني من النقص مثلما بدا لي..
أقولُ ذلك لأنني سبق وأن شاهدته صدفة في مرة من المرات
من نافذة غرفتي.. كانَ مع أصدقائه.. شاهدته للمرة الأولى ضعيفاً!
لم أعرفه في البداية.. كانوا يعتدون عليه بالضرب وبالمزاح الثقيل..
وكان لا يقاوم.. بل يتقبل ذلك؛ كما لو أنه يخشاهم..
كانت صدمة بالنسبة لي..
مازن المتسلّط القوي العصبي.. لا يقوى على المقاومة!
أخبرتُ أختي فرح بما شاهدته.. لم تصدقني في البداية، ولكنها
نصحتني وحذرتني بأن لا أخبر والدتي بذلك.. خصوصاً مازن..
يجب ألّا يعرف؛ تجنباً لردة فعله غير المتوقعة تجاهي..

للأسف.. كان عنيفاً جداً معنا دائماً.. وبالتحديد معي أنا..

لا يحترم أختي فرح، ولا يحترمني.. ولا يحترم حتى والدتي..

منذ أن كنا صغاراً ونحن نتشاجر شجارَ أطفال..

فتنتهي المشكلة حالاً.. وننسى ذلك لصغر سنّنا..

ولكن عندما كبرنا شيئاً فشيئاً.. أصبحتْ خلافاتنا غالباً ما تترك أثراً سيئاً جداً لا يُنسى!

هذا الأثر بدأ يتراكم مع مرور الأيام..

أصبح مازن أكثر تمرداً وتجبراً حتى مع والديّ..

الحقيقة هما السبب في وصوله إلى هذه المرحلة من العنف..

هذا التمادي منذ الصغر؛ سببه أنه لم يجد له رادعاً من قبل والديّ..

ولأنه الذكر الوحيد في العائلة..

فقد كان الابن المدلل، الذي لا يُرفض له طلب.. خصوصاً من أبي..

كان يفرض علينا بطريقة أو بأخرى العمل على إرضائه!

حتى والدتي.. في كل مرة نتشاجر فيها معه على لعبة..

كانت تتدخل وتنتصر له..

وعندما نتشاجر على قطعة حلوى، أو رقائق البطاطا، أو أي شيء آخر..

يكون هو الطرف المنتصر حتماً..
وعندما نبكي بسبب تعدّيه علينا بالضرب أنا أو أختي فرحٍ..
كانت الأعذار جاهزة:
لماذا تُغضبانهِ؟ تستحقانِ ما جرى لكما!
لماذا تلعبانِ معه؟ أصبحنا لا نطيقُ وجوده، أو حتى ذكر اسمه..
كان لا يجيدُ التفاهم مع أحدٍ ولا حتى التحدُّث ببساطة..
انفعاليٌّ وعصبي جداً بشكل لا يطاق..

في عام 2014..
كنتُ أدرسُ في آخر سنة، من المرحلة الثانوية..
حيث كنتُ قد وصلتُ إلى الثامنة عشرَ من عمري تقريباً..
كنت في قمة حماسي لتلك المرحلة.. ولكن للأسف..
حدثَ في عائلتنا أمرٌ مفاجئ.. قلبَ حياتنا كلّها.. رأساً على عقب!
توفيَ والدي في بداية تلك السنة، بسكتة قلبية مفاجئة..
من فرط الشرب الذي كان يُدمنه خلسة.. فباغتهُ الموت خلسة أيضاً..

كانت صدمة، وضربة موجعة لنا جميعاً.. وخصوصاً لوالدتي!..
خيم الحزن علينا بشكل فظيع.. وكانت أسوء سنة في حياة عائلتنا..
شعرْنا بالضياع.. انقلبتْ الأمور بشكل غير مفهوم..
كانت أختي فرح تدرسُ في المرحلة الجامعية..
فاضطررنا إلى قطع الدراسة في تلك السنة السيئة.. متفرغين للحزن..

لعدم مقدرتنا أنا وأختي على تقبُّل هذا الوضع المفاجئ لنا..
للأسف! أصبحت والدتي أكثر انطوائية، بعد انتهاء العزاء..
بل إنها أصبحت أكثر سوءاً معنا..
فبعد مرور قرابة خمسة أشهر من وفاة والدي.. كانت تردد أمامنا دائماً:

- عندما كان والدكم حياً، لم يتحمل مسؤوليتكم.. كيف سيتحملها ميتاً؟ لستُ مستعدة أن أقضي باقي العمر في توفير احتياجاتكم.. لا أريدُ الحياة.. أريد الراحة فقط.. هي من أبسط حقوقي.

والكثير الكثير من التذمُّر والقسوة..

أما أخي مازن.. فكان يُشعرنا كما لو أنَّ ملكيتنا قد انتقلتْ إليه!
فبعد وفاة والدنا.. كان يتحكم في دخل إيجار بنايتنا الصغيرة..
ولم يترك لوالدتي سوى راتب والدي، الذي تقلص بسبب وفاته..
المُضحك أن والدتي كانت تشكرهُ على ذلك.. وكأن ما فعلهُ مكرُمة منه!

مرتْ السنة بسرعة، ولم ندرس فيها شيئاً للأسف..
حتى أخي مازن كان قد ترك دراسته الثانوية، قبل اتمام أول مرحلة فيها..
فالمال أصبح متوفراً بين يديه.. واحتياجاته كلّها كان يستطيع الحصول عليها.. فبدأ يكثر من السفر بعد فترة من موت أبي..
ويتركُنا مع والدتي، دون اهتمام..
لقد فقدْنا اهتمام والدتي في متابعة تحصيلنا التعليمي..
فقدتْ هي ذلك الشغف.. ولم تعد كما كانت..
توالت الأيام حتى أتى ذلك اليوم الذي أذكره جيداً، في الإجازة الصيفية..
كنا قد عقدْنا العزم أنا وأختي..

على مواصلة دراستنا مع بداية السنة الدراسية الجديدة..

ولكن دائماً هناكَ ما يُحبط العزم، إنها بعض الأمور غير المتوقعة!

اتصلت صديقة والدتي الخطّابة.. عارضة رغبة إحدى العوائل بتقدم ابنها.. بعرض زواج من أختي الكبرى فرح..

رحبت والدتي بالطلب.. وحددتْ موعداً لزيارة عائلة الشاب..

الذي أحزنني.. هو موافقة فرح!

شعرتُ برهبة؛ لأنها سوف تتركني.. وسأبقى لوحدي في الغرفة!

حاولتُ إقناعها بأن تؤخّر الفكرة..

ولكنها كانت أكثر اندفاعاً لها.. أخبرتني أنَّ هذا المصير سوف يحدث اليوم.. أو بعد سنة.. فالزواج سنّة الكون كما تقول..

أصابني ضيقٌ لا يمكنني وصفهُ.. ولكن ما باليد حيلة!..

لذلك وجدتُ نفسي أقفُ متفرجة..

وبالفعل.. لقد حصلَ كل شيء بسرعة مستفزة..

زيارة الرجل مع عائلته.. النظرة الشرعية بحضور أخي وخالي..

ثم بعد ذلك بأسبوع، وصلت إلينا الموافقة..

قامت أمي بتكليف أخي بالبحث وبالسؤال عن الرجل المتقدم للزواج..

الاستعلام عن عائلته ووظيفته وأخلاقه، والعديد من التحريات الروتينية..

ولكنَّ أخي مازن لم يكن جاداً في البحث، ولا في السؤال..

ووجدتْ أمي من أختي الإصرار على الارتباط..

فوافقت وتناقشت مع خالي.. وساندَها في الموافقة؛ لأن الزواج كما يقول هو سترٌ للبنات.. وخصوصاً للفتيات المتوفى والدهُنَّ..

في أقل من ثلاثة أشهر حصل الزواج..

كان عرساً مختصراً وجميلاً.. الفرحة لم تكن تسع أختي فرح..

فرحتُ لها.. بقيَ في داخلي شيءٌ غريبٌ يزعجني،

لا أعلم ما هو!..

ربما حزنُ فراقها لي.. وما أحزنهُ من فراق لشريكة طفولتي!..

بعد انتهاء تلك الليلة الجميلة..

عُدنا إلى المنزل.. ولأول مرة أدخلُ غرفتنا لوحدي!

كانت موحشة بكل ما تعنيه الكلمة!..

سرير فرح خالٍ.. كان الفقدُ يتشكل على جنباته..

سألتُ نفسي.. كيف لي أن أنام لوحدي؟

مع من أتناقش.. أتجادل.. أتعارك.. أتشاركُ بالطعام؟!
كنتُ حزينة جداً، بالرغمِ من فرحتي الصادقة تجاه سعادة فرح..

مرت الأيام..
كنتُ أتواصل مع فرح يومياً.. ثم بصورة شبه يومية..
وأما زياراتها لنا.. فقد كانت أسبوعياً.. ثم أصبحت شبه أسبوعية..
وهذه عادة سيئة، قد تبدأ عند بعض الناس بعد الزواج للأسف!..

نحنُ لا نبحثُ عن الخذلان عمداً..

هو من يتسللُ إلينا..

من خلالِ ثغراتِ اختياراتنا الخاطئة!

في عام 2015..

كان عمري يقارب التسعةَ عشرَ عاماً..

وجدتُ نفسي قد أدمنتُ على تصفح عالم "تويتر"

بسبب فراغي ووحدتي القاتلة.. والتوقف عن مواصلة الدراسة..

عالم تويتر.. كان أشبه بحياة أخرى، وجديدة عليّ!

وجدتُ فيه مالم أجدْه في عائلتي.. شيء يقال له: الاحتواء!!

كنتُ كأية فتاة.. تتصفح وتلعب وتضحك وتشارك يومياتها..

القليل منها صادق.. والكثير منها مختلق، ولا وجود له..

كأنْ أغرِّد بأنني مشغولة الآن بتناول قهوتي، في مسبحنا الخاص..

وأنا في الحقيقة أغرِّد أثناء قضاء حاجتي في حمام منزلنا الصغير..

وأضع صوراً كنتُ قد سرقتها من حسابات أخرى..

أو أغرِّد مدّعية بأنني، قد تلقيتُ هدية ثمينة من أخي العزيز..

بينما أكونُ للتو قد فرغتُ من تضميد خدّي الذي تلقى لكمة

خاطفة من أخي السيء في الحقيقة..

وأقوم بالعديد من المشاركات، التي تجعل يومنا أفضل بعض الشيء..

حتى أتى ذلك اليوم..

بعدَ قرابة سنة من انشغالي بحسابي الخاص في العالم الافتراضي..

ذلك اليوم الذي وقعتْ عيناي فيه على بعض التغريدات الغريبة..

أحدُ الأشخاص الذين كانوا يتفاعلون مع مشاركاتي المتواضعة..

كان يعيد نشر تغريدات ملفتة.. فتظهر لي على الصفحة العامة..

كانت مطالبات بحقوق مسلوبة كما قرأتُ..

تخصُّ المرأة السعودية!!

كحق قيادتها لسيارتها.. أو سفرها دون إذن وليّ أمرها..

أو حتى حقها في المساواة في الميراث، وفي العديد من الأمور..

حوارات تعوَّدنا عليها في المجتمع السعودي..

وحتى في المجتمعات العربية..

ولكن ما لفتَ نظري.. هو أنَّ معظم المغردين والمطالبين بذلك

أسلوبهم صدامي ومستفز، يحمل إساءات..

كانت تشير حساباتهم إلى أنهم يعيشون في الخارج!

بعضهم في أمريكا، وبعضهم في كندا، وبعضهم الآخر في فرنسا..

بعضهم تشير صورهم إلى أنهم سعوديّون، وبعضهم الآخر عرب..

تكرَّر هذا الأمر كثيراً..

حتى رأيتُ بعض الحسابات تتداول قصة محزنة جداً..

لفتاة سعودية معنَّفة من قبل ذويها..

قررتُ الدخول إلى خانة الخاص، لحساب الشخص الذي أعرفه ويقوم بإعادة نشر مثل هذه المواضيع والمشاركة فيها..

شابٌ أتواصل معه منذ مدة.. وجرت بيننا حوارات عامة عادية..

عندما تعرفتُ عليه..

أخبرني بأنه كندي الجنسية.. من أصول جزائرية.. اسمه "جمال"

يعيشُ في كندا منذ سنوات، استقرَّ فيها وحصل على الجنسية..

كان طيباً جداً.. ووسيماً..

جذبتني تغريداته التي كانت تخص الطبيعة، والصور الاحترافية..

وبعض الأغاني الجميلة التي ينشرها..

وكان دائماً مناصراً لقضايا المرأة كما بدا لي!

ما لفتَ نظري تداولهُ لقصص المعنَّفات في العالم العربي..

وخصوصاً في دول الخليج.. وبالتحديد في السعودية..

لا أعلمُ إن كانت قصصه حقيقية؟ أم أنه يختلقها لكسب المتابعين..

ولكنني لا أنكر تأثري العميق، وتفاعلي معها!

يبدو أنها لامست بعض الجروح المنحوتة في قلبي وشخصيتي..

تحدثنا أكثر من مرة..

فتطورت علاقتنا كصداقة إلكترونية..

تعرفنا على بعضنا أكثر.. على أسمائنا وعلى اهتماماتنا..

حتى أصبح بيننا بعضُ الثقة والتآلف..

استمرت هذه العلاقة حتى أصبح عمرها شهوراً عديدة..

وتطورت العلاقة إلى حدّ أننا تبادلنا صورنا الشخصية..

وجدتُ نفسي أهرب إليه؛ هرباً من واقع أسرتي المستفز..

هرباً من خلافاتنا، ومشاكلنا وتصادماتنا..

مع مرور الأيام.. تعودتُ على وجوده..

شعرتُ أنَّ هناك شيئاً يتحرك بداخلي تجاهه كلما تحدثنا..

شعور لا أعرفُ كيفَ أصفهُ؟.. لكنه إحساسٌ لذيذ يثير النشوة!

يبدو أنني قد وقعتُ في الحب!!

أو ربما كان إعجاباً أو تعلقاً، لا يرقى إلى مرتبة الحب..

ولكنه كان إحساساً جميلاً، أشعر بالارتياح بسببه..

استمرت علاقتنا حتى انتقلت أحاديثنا من كواليس تويتر إلى كواليس أرقام هواتفنا!

كان الحياء يسيطر عليّ بعض الشيء..

ولكنهُ كان يتناقص شيئاً فشيئاً.. وجدتُ نفسي قد اعتزلتُ أسرتي!

حتى والدتي لاحظتْ ذلك.. ولكنها لم تكن تكترث..

تطوَّر الوضع أكثر..

حتى أصبحنا نتحدثُ عن طريق المكالمات المرئية..

تجرأتُ على غير العادة.. وأظهرتُ له وجهي على استحياء

وأنا مُخفية شعري بالحجاب..

كلمات الغزل التي تدفقت نحوي من طرفهِ، لا يمكن حصرها..

لم أسمع مثلها في حياتي أبداً.. ولا حتى من والدتي!

لأول مرة أشعر أنني أنثى.. أنني جميلة.. أحسستُ بقيمتي!!

هذا الإحساس أدمنتهُ.. ولم أقوَ على صدِّه أبداً..

هذا الشعور بالأمان.. لم أكن أشعر بشيء غيره..

لذلك وجدتني أخبره عن كل شيء يحدث معي!

من غير أن ألاحظ اندفاعي في ذلك السلوك..

سببُ تواصلي معه في أغلب ساعات يومي، هو تقصير أختي فرح في تواصلها معي، وانشغالها في التزامات حياتها الزوجية..

لاحظتُ أنا ووالدتي قلة تواصلها معنا.. قد يكون ذلك طبيعياً..
لكن غير الطبيعي.. هو أن يكون ذلك تهرُّباً.. وليس انشغالاً!
حتى أتى ذلك اليوم..
والذي أتت فيه أختي فرح لزياتنا، بعد تواصل متقطع..
ولم تكن هذه الزيارة عادية، مثل زياراتها السابقة كلّها!
فبعد ستة أشهر فقط من الزواج..
اعترفتْ فرح لوالدتي، بأن زوجها عصبيٌّ جداً..
حاولت والدتي تهدئتها.. وكنتُ أنا أيضاً أقوم بذلك..
على الرغم من أنني أصغرها عُمراً..
وكانت تتجاوب مع محاولاتنا.. كُنتُ أشعر من صوتها عندما تتصل بي..
بأنَّ هناك شيئاً ليس على ما يرام..
تأكد لي ذلك بعدما حضرت إلى منزلنا، وهي شاحبة الوجه..
أصرت والدتي على معرفة ما بها!..
فاعترفت بعد إصرار وهي منهارة.. بأن زوجها يضربها!!
صُدِمتُ من هذا الخبر.. ولكن تضاعفت صدمتي بسرعة!
بسبب ردة فعل والدتي غير المتوقعة.. حيث تحدثت غاضبة:

- لم يضربكِ من فراغ.. لا بد وأنكِ مقصرة في حقه.

توقفت أختي فرح عن البكاء، ونظرت نحو والدتي مندهشة، ثم قالت:

- ما الذي تقولينهُ يا أمي؟

واصلت والدتي توبيخ فرح، وبدأت في عرض الطرق المناسبة للحفاظ على مزاج الزوج، وإدخال السعادة إلى قلبه!!

الحقيقة لم أستوعب ما تقوله أمي.. لذلك وجدتُ نفسي أصرخ محتجّة عليها دون وعيٍ مني، وأنا أقول:

- هل أنتِ في وعيكِ؟ تقول لكِ أنه يضربها.. هل تَعِين ماذا يعني هذا؟

لم أكمل حديثي إلا وصفعتني على وجهي بباطن يدها، وجعلتني أترنّح.. ثم صاحت في وجهي؛ طالبة مني الذهاب إلى غرفتي..

وفعلتُ ذلك هاربة، وأنا أبكي..

ما الذي يحدث؟ أين قلبُ الأم الذي نسمع عنه،

ولا نشعر به في منزلنا؟

كنتُ أشعر بقسوة والدتي، بشكل يؤلمني داخلياً..

لكن لم أرَ مثل قسوتها حيال هذا الموقف.. يبدو أن قلبها أصبح أقسى بعد وفاة والدي.. هي تشعر بالفراغ.. ولا تبحث عن مواجهة المشاكل..

للأسف! هذا النوع من الأمهات موجود..

يجعلون الحق في صف الرجل.. الزوج.. مهما كانت تجاوزاته..

ولولا الخوف من الوقوع في المحظور.. لطلبوا أن نعبدَهُ!

هذا الاعتقاد الذي ترغب العائلة أن نتوارثه منهم..

وهو بأن لا قيمة لنا من دون الرجل.. لا وجود.. لا شيء يستحق الحياة!

هو اعتقاد لا يمكن أن نؤمن به في الوقت الحالي..

النظرة الصحيحة إلى الرجل.. أنه شريك رئيسي للمرأة..

كما أن المرأة هي شريكة رئيسية للرجل أيضاً..

عليه وعليها واجبات.. يحضر الاحترام فيها قبل الحاجة..

هذا الاحساس الصادق المتبادل والمتصالح مع الذات..

متى ما وُجد..

فإن العلاقة ستستمر بحب ووضوح.. لا على مصالح واستغلال!

كنتُ لا أملك حيلة، إلا أن أفضفض همومي لجمال..

فبينما كنتُ أجفف دموعي.. وكنتُ على وشك أن أكتب له عما حصل في منزلنا اليوم.. دخلت فرح إلى الغرفة، على وقع صراخ والدتنا وشتائمها لنا..

فاقتربت مني كي تحتوي بكائي..

على الرغم من أنَّ ألمها يفوق ألمي..

وكنتُ أقول في نفسي.. دموعي ستتوقف بعد قليل..

لكن كيف ستتوقف معاناتكِ يا أختي؟!

تحدثنا قليلاً.. وطلبتُ منها ألَّا تعود إلى زوجها..

وأخبرتني أن هذه الفكرة تراودها.. لكن من المبكر أن تقرر تنفيذها..

غريبٌ هذا التأخير!..

لا أعلم ما هو العذر الذي يجعلنا نسمح للآخرين بمواصلة إهانتنا؟!

مرَّ بعض الوقت حتى عاد أخي مازن إلى المنزل..

أخبرتْهُ والدتي بما حدث مع فرح..

اقتحم غرفتنا فوراً، كما لو أنه رجل أمن يُباغت مطلوبات خطيرات..

سأل أختي عن حالتها..

واستمعَ إليها.. وشعرتُ أنه سيتفاعل معها بشكل إيجابي كرجل..

ليتني لم أشعر.. كررَ حديث والدتي نفسهِ!

حيث قال بلهجة حادة:

- ليس لكِ سوى منزل زوجكِ.. كوني زوجة مطيعة ولا تغضبيه زوجكِ شخص طيب.. حافظي على بيتكِ وعودي إليه.

لم أتدخل أبداً..

فإن كانت والدتي قد كافأتني على تدخلي بصفعي على وجهي..

فحتماً مازن سوف يكافئني بتحطيم وجهي نفسه!

لذلك اكتفيتُ بالامتعاض، وعقد حاجبيّ..

ارتفعت الأصوات في جدالهِ مع فرح.. وانتهت بتدخّل والدتي التي أمرت أختي بالعودة إلى زوجها.. حالاً..

وفعلاً.. غادرت أختي غاضبة بعد ساعة تقريباً من المحاولات والجدال..

ودَّعتُها وأنا محبطة، والدموع تملأُ عينيَّ..

كان الله معها.. هذا كل ما أستطيع أن أقوله.. وحتى أفعله..

لم أكره والدتي وأخي، مثل كُرهي لهما تلك المرة..

أغلقتُ باب غرفتي عليّ، واخترت الانطواء والعزلة..

كنتُ أحاول أن اتواضل مع فرح؛ كي أطمئنَّ عليها، ولا أنجح بذلك..

فأجدُني أتواصل مع جمال، وأخبره بما يحدث كي أرتاح ولو قليلاً..

لم أكن أخرج من غرفتي، إلا لسرقة الطعام من المطبخ..

أو لقضاء حاجتي فقط..

لم يُقلقني حينها سوى انقطاع تواصل أختي معي منذ آخر مرة..

حدثتني قبل أن تدخل منزلها تلكَ الليلة، التي أجبرتها فيها والدتي على العودة..

ومن بعدها حاولتُ مراسلتها وحتى الاتصال بها..

لكنها لم تكن تجيب!

في منتصف ليل اليوم الثالث من عزلتي، بعد مغادرة أختي..

سمعتُ صرخة في صالة منزلنا؛ جعلتني أقفز من فراشي فوراً وأتوجَّه إلى مصدر الصوت مباشرة..

كانت والدتي تتحدث بهاتفها.. وكانت تبكي وتسأل عن عنوان مستشفى!!

انتهت المكالمة، وهي تمسك رأسها.. سألتُها بتوتر:

- ما الذي يحدث؟

نظرت إليّ، ثم صاحتْ بي قائلة:

- ارتدي عباءتكِ بسرعة.. أختكِ فرح مصابة في المستشفى.

ردة فعلي كانت أكثر رعباً وعشوائية.. بكيتُ وحاولت الاستفسار ولكنها طلبت مني أن اتجهز ريثما تتصل هي بمازن، كي يذهب بنا إلى المستشفى..

أكثر من عشرة اتصالات متتالية، ولم يجب مازن!..

بل إنهُ في بعض المحاولات كان يقطع اتصالات أمي، ولا يرد عليها.. أي أنه كان يشاهد تكرار الاتصالات، ولكنه يتجاهلها بكل وقاحة..

قررتْ أمي أن نذهب بسيارة أجرة، ولا حل غير ذلك..

وفعلاً.. نزلنا إلى الشارع مسرعتين وهائمتين على وجهينا..

حيث كانت الساعة تقترب من الواحدة فجراً..

وبعد قرابة ربع الساعة من المشي والتلفّت.. وجدنا سيارة أجرة.. استقلّيناها وتوجهنا ووصلنا..

كانت رحلة كما لو أنها على ظهر سلحفاة..

على الرغم من أن الشوارع كانت شبه خالية من الزحام..

رحلة صعبة.. عندما تذهب إلى من تحب.. ولكنك تخشى أن تراه!

تخشى رؤيته في منظر لا تتمناه له أبداً..

رحلة شد الأعصاب.. قضيتُها أنا بالبكاء.. وقضتها والدتي بالدعاء..

دخلنا من باب الطوارئ..

كنتُ أنا أمسك بيد والدتي؛ كي لا تسقط بسبب مَشيها السريع..

سألنا عن أختي.. فأخبرونا بأنها منومة في قسم العناية المشددة منذ يومين!!

لم نستوعب ذلك.. توجهنا مسرعين حتى وصلنا..

طلبنا الدخول ورفضوا.. وبعد رجاء وبكاء، حضر الطبيب وتعرفَ علينا..

ثم وافق على إدخالنا لمشاهدتها من خلف الزجاج العازل..

لم نتعرف عليها!!

رأسها مغطى بالشاش.. وأيضاً يداها.. وقدماها..

كانتا مضمَّدتين بضماد سكري اللون.. والأجهزة في أنفها وفي فمها..

علا صراخُ أمي وبكاؤها..

ثم هجمت على المحقق، وأطبقت بيديها على صدره ممسكة بثوبه..

تطالبه بسرعة بالقبض على زوج ابنتها، وهي تلعنه..

ولم يبادلها المحقق أية ردة فعل عنيفة.. سوى أنه كان يطالبها بالهدوء..

أما أنا فنهضتُ نحو والدتي..

لكنني سقطتُ أبكي على الأرض، فاقدة لقواي..

سقطتُ علىَ الأرض، لكن ليس من الدور الرابع كما سقطت أختي فرح..

نسيتُ حينها تفاصيل هذا العالم كله.. اهتماماتي كلها..

وأمنياتي كلها..

حتى صراخ والدتي أمام المحقق، شعرتُ كما لو أنهُ خيالٌ..

لم يبقَ في مخيلتي سوى ملامح أختي الكبرى فرح..

لم يخطر على بالي ولا على بالها يوماً، أن نعيش هذه اللحظات العصيبة..

شعرتُ بشيء يرفعني من سقوطي.. ولم أفهم كيف!

حتى التفتُ إلى يميني وعرفت.. كانت الممرضة تساعدني على النهوض..

جلست أنا ووالدتي لا نعلم ما الذي نفعله؟.. غير البكاء..

مر الوقت دون أن نشعر بذلك.. حتى حلَّ آذان الفجر..

رنَّ هاتف والدتي.. إنه مازن.. يبدو أنه انتهى من سهرته كعادته..

أخبرته والدتي بما حدث بشكل مختصر..

بعد قرابة الساعة.. وصل مازن إلينا.. ورائحتهُ لا تطاق..

كانت تحدثه والدتي، وهي تضع يدها على أنفها متحاشية الرائحة..

كان حزيناً.. وغاضباً.. لكنه لم يكن متأثراً بذلك الشكل الكبير والذي يوحي لنا بأنَّ من تعاني في الداخل هي شقيقته!

للأسف.. أخبرَنا مازن بأنه وبعد تلك الليلة التي أجبرَ فيها فرح هو ووالدتي على العودة إلى منزلها..

قام هو بالاتصال مع زوجها.. ودخل معه في نقاشٍ حاد..

أخبرنا بأنه حاول اللقاء به، ولكنه كان يتهرب..

ثم انتهت المكالمة بعد أن قام مازن بتهديده، بأنه سوف يكسر يديهِ إن تجرأ مرة أخرى، وقام بمسّ فرح بأي سوء..

يبدو أن زوجها قد غضب من تصرف مازن، ومن فضح فرح له..

فتوجه إليها غاضباً، وحصل ما حصل!!

بصقتْ والدتي على مازن، وهي تعلنه وتلقي عليه وابلاً من الشتائم..

ثار غضب مازن، وكاد أن يعتدي عليها لولا نظرات بعض المارة..

فخرج من المستشفى، وهو يتمتمُ ببعض الكلمات غير المسموعة..

طال انتظاري أنا ووالدتي.. وبدأنا نشعر بالإرهاق..

اقتربت الساعة من التاسعة صباحاً..

أقنعتُ والدتي بتناول بعض الطعام من مقهى المستشفى بعد رفضها..

وبعد أن فرغنا.. مرَّ بعض الوقت، فتوجهنا إلى القسم الذي تنام فيه فرح فالتقينا بالطبيب في الممر.. وتحدثَ معنا، وليته لم يتحدث!

طلب من والدتي ومني الهدوء.. وأن نؤمن بالقدر وبإرادة الخالق!!

ثم أخبرنا وهو ينظر إلى الأرض:

- الحقيقة لا أعلم كيف بقيتْ ابنتكِ على قيد الحياة!، بعد هذه القفزة من مكان مرتفع كالدور الرابع.. لقد كُتبت لها حياة جديدة..

على الرغم من الكسور التي أصابتها.. هي الآن تتجه إلى الاستقرار.. لمسنا تجاوبها، حالتها تتغير نحو الإيجابية، هي مؤشرات مهمة..

ولكن يؤسفني أن أخبركم بأن ابنتكم قد أصيبت بشلل نصفي*

صدمة أخرى!..

بل صفعة نتلقاها لم نتوقعها..

تفوق صفعة خبر وجودها في المستشفى!

ما الذي قد فعلناه في حياتنا؛ حتى نتلقى كل هذه الصفعات المتتالية؟

لم تستوعب أمي ما قالهُ الطبيب.. فبدأت تتوسل للطبيب أن يشفي ابنتها فوعدَها خيراً.. شعرت بأن وعوده لم تكن صادقة..

هو فقط يمتصّ ردة فعلها كأم..

فطلبت منه السماح بالدخول إليها.. وسمح لها بذلك طالباً الهدوء..

رفض دخولي أنا.. وطلب مني الانتظار خلف الزجاج..

اقتربتْ أمي منها ببطء.. ثم مدت يدها، وبدأت تمسح على رأسها المغطى بالشاش..

---

* الشلل النصفي: هو مرض ينتج عنه شلل نصف الجسم، بسبب تلف أجزاء الدماغ المسؤولة عن الحركة، وهيَ حالة تؤدي إلى إصابة نصف الجسم بالشلل، أو عدم القدرة على الحركة، وهو شكل من أشكال الشلل الدماغي يخلّف وراءهُ تلفاً في نصف الدماغ.

والدموع تنهمر من عينيها.. وشاركتُها أنا الدموع من مكاني..
رأيتُ والدتي وهي تقرأ عليها مما تحفظه من القرآن..
وشاركتُها بذلك.. الحقيقة كنتُ محرجة..
فلا أذكر أنني قد قرأتُ شيئاً منه منذ مدة طويلة..
ولا حتى أذكر أنني قد ابتهلتُ بالدعاء..
للأسف.. معظمنا لا يتذكر من يعبده، إلا عندما يحتاج منه شيئاً..
مخجل أن نقصر مع من نعتقد بأن لديهم الملجأ والحلول..
ولا نذكرهم إلا عندما نفقد الثقة في قوانا وقدراتنا!

أطالت والدتي المدة، قبل أن يطلبوا منها الخروج..
طلب الطبيب مني ومن والدتي أن نكون أقوياء من أجل فرح..
كان يجب أن أتظاهر بالقوة أمام أمي..
فحالتها النفسية -وحتى الصحية- كانت حالة يُرثى لها..
فرح لا نملكُ تجاهها غير البكاء والدعاء..
ولكن ما يشغلني الآن..
هو ذلك الحقير الذي تسبَّبَ لها بكل هذه البشاعة.. لن ينجو..

تحدثتُ مع الطبيب قبل أن تخرج والدتي، وطلبت منه أن يقنعها بأن تعود إلى المنزل؛ لقضاء وقت من الراحة..

وبالفعل.. تحدث معها وأخبرها عن صعوبة بقائها هنا لأن القوانين ترفضُ ذلك..

تمسَّكتْ بالبقاء، ولكنه أقنعها تحت اسم الأنظمة والقوانين بالمغادرة..

عُدنا إلى المنزل، والحزن لا يفارقنا، ولا يفارق حتى جدرانه..

توجهتُ إلى غرفتي مسرعةً، وأغلقت الباب لأبكي..

وتواصلتُ حالاً مع جمال.. كان متفاعلاً ومهتماً لما حدث معنا..

شعرتُ كما لو أنه من عائلتنا.. كان اهتمامه يفوق اهتمام أخي مازن!

يكفي أنه يستمع لي.. كي أبوح بما يوشكُ على خنقي..

أصبح وضعنا روتينياً ومملاً بعد الحادثة..

نذهب كل يوم إلى زيارة فرح.. أحياناً بسيارة الأجرة وأحيانا برفقة أخي مازن.. ولم يظهر زوجها النذل منذ وقوع الحادثة!

حاول مازن الاتصال به، ولكنه هاتفه كان مغلقاً على الدوام..

كان غاضباً منه بشكل ملحوظ لم أفهمه!!

أزالَ ذلك اللبس عني وعن والدتي.. لقاؤنا بالطبيب في الممر ذات مرة..

تحدث معنا قليلاً، ولمس اهتمامنا إلى أن تجرَّأ وتحدثَ بشيء صادم! حيث تساءل وهو محرجٌ بعض الشيء، موجهاً حديثه إلى والدتي:

- عفواً يا أختي، هناك تساؤل يشغلني بعض الشيء.
- تفضل أيها الطبيب، قل ما تشاء.. يهمني أن أسمعك.
- طالما تعني لكما المريضة الكثير.. لماذا لم تأتيا إلى هنا منذ أن أبلغناكم مباشرة؟!

استغربتْ والدتي تساؤله، وأجابته مباشرة:

- لم تتصلوا بنا إلا بعد منتصف الليل.. بعد يومين من وصولها إليكم ولم نستطع التواصل معها بسبب خلافات أسرية خاصة.. وعندما وصلنا الخبر.. حضرنا بأقصى سرعة.. لماذا تسألني هذا السؤال؟!

صمتَ الطبيب قليلاً.. ثم قال وهو مستغربٌ:

- غريب!.. حسب علمي فقد قامت الإدارة فوراً بالتوصل إلى عنوانكم وبالاتصال بوليِّ أمركم مازن، وقد حضر منذ اليوم الأول برفقة رجل علمنا أنه زوج المريضة.. وتحدثتُ معهما شخصياً ثم غادرا!

صُعقنا من حديث الطبيب..

هل يعقل أن مازن كان يعلم عن حال فرح، ولم يخبرنا؟!

لماذا فعل ذلك؟!

وما الذي جعلهُ يحضر برفقة زوج فرح اللعين؟..

على الرغم من خلافهما معاً كما أخبرنا؟!

لماذا لم يخبرنا بحضوره معه؟

لماذا كان يتظاهر أمامنا بأنه يبحث عنه مثلنا؟!

قاطع صدمتنا الطبيب، بعدما شعر بأنه قد أدخلَ نفسه فيما لا يعينه كطبيب وقدَّم اعتذاره متلعثماً.. ثم غادرَ متظاهراً بالمشاغل العاجلة..

وكعادة أمي عند الغضب.. بدأت باللعن وبالدعاء على مازن..

بينما اخترتُ أنا الصمت.. فما سمعتهُ للتو.. جعلني أشعر بالغرابة فعلاً..

طلبتْ والدتي مني أن أتصل بمازن فوراً..

وبعد عدة اتصالات.. أجابَ عليها.. فوقع بينهما شجار..

جاء صوته وكأنه ينفجر من هاتفي؛ بسبب حدته وارتفاع نبرته..

أطلقت والدتي وعيدها غير الصادق كالعادة..

وأبدى هو عقوقه المعتاد، مستخدماً الكلمات السيئة والمكابرة على الاعتراف.. فأنهت والدتي بعد ذلك المكالمة، وأقفلتْ الخط في وجهه، قبل أن ينهي حديثه..

ثم جلست على الأرض تبكي، وجلستُ بجانبها أتوسل لها أن تتمالك أعصابها.. وأن تهدأ قليلاً..

ومنذ تلك المحادثة..

اختفى أخي مازن عن المنزل، وتوقفَ عن زيارة فرح في المستشفى!

بعد قرابة أسبوع..

توالت الأخبار المفرحة.. خبران تفصل بينهما أيام قليلة..

لقد استيقظت أختي فرح، وتبدلت معظم أحزاننا إلى أفراح..

هكذا هو طبع الإنسان.. عندما يشعر أنه على وشك خسارة الكثير..

يقنع بالخسارة الأقل، ويعتبرها مكسباً.. على الرغم من أنها خسارة أيضاً لكنها بوجه آخر.. وجه أقل بؤساً.. وأقل إيلاماً..

سعادتنا كانت لا توصف.. شكرنا الطبيب كثيراً..

ونسينا الله مرة أخرى.. لم ننسهُ.. ولكننا لم نرَ وقتها سوى الطبيب..

فشكرناه بالدعاء له.. قد يكون ذلك اعترافاً غير مباشر بقدرة الرب..

هو في قلوبنا.. وذلك يكفي..

كانت فرح تحرك عينيها.. لقد عرفت والدتي، وكذلك عرفتني..

شعرتُ كما لو أنها تحاول الابتسامة.. آآآخ يا فرح منظر لم ولن أنساه!

وبعدها بأيام ، تم نقلها إلى غرفة أقل تشدداً في المراقبة الصحية..

وأصبحتْ زيارتها والمرافقة لها أسهل وأكثر سلاسة..

وبدأتْ تدريجياً مع مرور الأيام، تتحدث معنا ببعض الكلمات..

تتحدث شيئاً فشيئاً..

هذا التطور البسيط.. رفع من معنويات والدتي بعض الشيء..

لقد اتفقتُ أنا ووالدتي بألَّا نفتح معها أي موضوعاً عن الحادثة..

كي نبعد عنها أية مضاعفات نفسية قد تصيبها بأذىً..

بعد هذه الفرحة بعشرة أيام تقريباً..

حلت الفرحة الثانية، التي جعلتنا في أفضل حالاتنا..

حضر المحقق إلى المستشفى..

حيث وصلهُ خبر تحسن حالة أختي..

فقد استعادت فرح بعضاً من صحتها وقدرتها على التحدث بشكل أفضل وملحوظ.. ولكنها ما تزال تتحدث ببطء وبصعوبة معي ومع والدتي..

التقى بنا المحقق بعد وصولنا برفقة سيارة الأجرة بدقائق..

وأخبرنا بأن مركز الشرطة قد اتصلَ به، وأخبرهُ بأنهم قد تمكنوا من القبض على زوج فرح اللعين..

ليس ثمة ما هو أجمل من هذا الانتصار المعنوي، لنا ولفرح تحديداً..

ولكن للأسف!..

الأفراح المتتالية تخلق شيئاً من الريبة!!

ليس هناك أفراح تتبعُ أفراحاً.. هذا هو المرعب في هذه الدنيا..

استأذن المحقق بالدخول إلى غرفة فرح؛ للتحدث قليلاً معها..

فسمحنا له ودخلنا معه.. ألقى السلام عليها، ثم اطمأن على صحتها..

ثم أخبرها قائلاً التالي:

- ألف سلامة يا أخت فرح.. أحب أن أزف إليكِ البشرى.. لقد تم القبض على زوجكِ.. المتهم الأساسي بمحاولة قتلكِ.. وذلك بقذفكِ من نافذة شقتكم من الدور الرابع.. هل لديكِ تعليق؟

نظرت إليه فرح محركة عينيها فقط.. ثم نظرتْ إلينا..

وهي تحاول أن تبتلع لعابها.. ثم قالت بصعوبة:

- زوجي لم يحاول قتلي.. كان في حالة غير طبيعية.. أذكر ملامحه الغاضبة جداً.. لقد حاول الاعتداء عليّ فقط.

استغربَ المحقق! ثم سأل وهو متعجب قائلاً:

- إذاً من الذي فعل بكِ هذا؟ كيف سقطتِ من هذا الارتفاع الشاهق؟!

- أنا من قفزتُ..

إجابة صادمة لم نتوقعها أبداً..

لم أصدق ولو للحظة، أن فرح الإنسانة الناعمة تقدم على فعل كهذا!

ولكني صدقتُ ما قالته كلّهُ، بعد أن شرحتْ لنا كل شيء..

تدخلتْ والدتي باكية، وهي تمسك رأسها بكلتا يديها قائلة:

- تريدينَ الانتحار يا فرح؟! الانتحار يا فرح؟!!

- لا، لا يا أمي.. مستحيل أن أقدم على الانتحار..

هنا تدخّل المحقق، وطلب الهدوء من والدتي..

قمتُ بالاقتراب من أمي بهدوء،
واحتضنتُ ساعدها الأيمن كي تهدأ..

طلب المحقق من أختي فرح أن تشرح له.. ما الذي دفعها للقفز بهذا الشكل الانتحاري؟.. فواصلت فرح حديثها بصعوبة:

- الرعب المفرط الذي ملأ قلبي وأعصابي كلها.. لقد دخل عليّ في ساعة متأخرة من الليل، دخل وهو يصرخ ويشتم بصوت مرتفع.. كان غاضباً لأنه علم بأنني قد أخبرتُ أهلي عن تجاوزاته بحقي.. وعن ضربهِ المبرح لي.. فلم أحتمل منظره المرعب.. فهربتُ منه متوجهة إلى مجلس الرجال، وأغلقتُ الباب قبل وصوله إليّ.. فجنَّ جنونه.. طلب مني أن افتح له، ولكنني كنت أرتعش وأبكي.. فبدأ برفس الباب بقدمه كي يكسره.. وبعد دقائق أوشك فعلاً على كسره.. فلم يكن لديّ مخرجٌ سوى تهديده بالقفز.. لعل وعسى أن يتراجع ويبتعد.. لم يكن هاتفي بيدي، لأنني تركته في غرفة النوم، وفعلاً كسر الباب.. ووجدني قد فتحت النافذة، ووقفتُ على طرفها.. فلم يترك لي فرصة.. بل أسرعَ نحوي مباشرة.. فوجدت نفسي قد قفزتُ من دون أن أفكر بالعاقبة.. فالخوف المتزايد غيَّرَ حساباتي كلّها، وحصل ما حصل للأسف!.

صمتَ المحقق.. ثم دوّنَ ما سمعهُ من أختي..

ولم تفارق عيناي عينيها.. كنت أدمعُ دون أن أشعر..

لأنني أيقنتُ من نظراتها التي أعرفها جيداً.. بأنها صادقة..

تحدثَ المحقق قائلاً:

- سوف أبلغ الجهات المختصة بشهادتكِ..

سألتهُ والدتي مباشرة، وهي في قمة استيائها:

- وماذا سوف تفعلون مع زوج ابنتي؟ فيما يخص اعتداءاته عليها.

- للأسف يا أختي.. بعد إفادة ابنتكِ؛ أصبح زوجها بريئاً من محاولة قتلها.. فابنتك أقرت بأنها هي من قفزت.

- نعم؟! ولكنها هربت منه، وقفزت بسببه!

- لا أحد يعلم ذلك سوى ابنتكِ.. جيرانها من أنقذوها.. ولم يشاهد أحدهم زوجها، شاهدوها لوحدها، وهي تقفز؛ فقاموا بإسعافها وحدهم.

- ماذا يعني ذلك؟

- سوف تصلكم التطورات حتماً.. لقد قمتُ بتوثيق الاعترافات كلها.

ثم غادر شاكراً لنا حسن تجاوبنا..

الحقير.. لقد أفلتَ من تحمّل المسؤولية..

كان بإمكان فرح أن تكذب..

وتنتقم من ذلك النذل شرَّ الانتقام..

ولكنها اختارت الصدق وعدم الافتراء، حتى وهي في أصعب حالاتها..

بعد يومين، حضر مازن للمرة الأولى إلى المستشفى بعد غياب..

غضبتْ والدتي عند رؤيته، فحاولت أن تطرده..

ولكنه تجاهل محاولاتها..

وطلب مني أن أبعدَها عنه؛ كي لا ينفجر غضباً بسببها..

فقمتُ بإبعاد والدتي.. فلا فائدة من الكلام مع هذا الشخص عديم الإحساس..

دخلت والدتي إلى غرفة فرح، وتبعتُها.. ثم تبعنا مازن..

فجأة.. حدثَ شيءٌ غريبٌ!

فرح تصرخ بصعوبة.. تطلب من مازن الخروج فوراً!

أنها تطرده، ولا تريد رؤيته أبداً!!

لم نفهم ما هو سبب ردة فعل فرح غير المتوقعة!..

حاولنا تهدئتها.. خوفاً من إيذاء الكسور المستقرة، التي ستؤلمها..

ولكنها لم تستجبْ لنا..

فغادر مازن فوراً مرتبكاً، من دون أن يتفوه بأية كلمة!!

يبدو أننا أمام صدمة جديدة تنتظرنا.. لم نعد نقوى أنا ووالدتي على تلقي المزيد من الصدمات..

اقتربتْ أمي من أختي، وحاولت تهدئتها.. وسألتها بهدوء:

- أنه أخوكِ مازن، ويبدو أنه أراد أن يطمئنَّ عليكِ.. ما خطبكِ؟

أجابت فرح وهي غاضبة، والدموع تتقاطر من طرفي عينيها:

- هذا الحقير مازن.. اكتشفتُ أن زوجي يتاجر معه بالحشيش.. فغضبَ زوجي بسبب تطفلي ومعرفتي بذلك، فضربني ضرباً مبرحاً ثم قام بتهديدي بالقتل؛ إن فتحت فمي لكما بأية كلمة، وبالتأكيد أخبر مازن عن اكتشافي للعلاقة التي تجمعهما.

لم نستوعب ما قالته فرح لنا..

غضبتْ والدتي كثيراً، حاولت أن تدرك ما سمعته.. فسألتها:

- وكيف عرفتِ أنهما يتاجران بالحشيش؟

فأخبرتها فرح بأنها ذات مرة..

استمعت إلى حديثهما، وشاهدت البضاعة بالمصادفة وهي مخبأة.. فقامت بمواجهة زوجها بعد مغادرة مازن.. فغضب واعتدى عليها..

ثم سمعتهُ من خلال الهاتف يخبر مازن عن انكشاف أمرهما..

واصلت فرح حديثها وسط ذهولنا:

- هددني بالطلاق وبالقتل.. ثم توعد بأن يسجن أخي مازن.. إن تحدثتُ لأهلي بهذه العلاقة المخزية، التي تجمعهما معاً.. ولذلك أتيتُ إليكم، وأخبرتكِ يا أمي بمعاناتي طلباً للمساعدة.. وحصرتُ معاناتي في الضرب فقط.. فلم أستطع أن اكشف لكما الحقيقة؛ خوفاً على مازن من الضرر.. ولذلك كان يصر حينها على عودتي إلى منزل زوجي، حتى لا ينكشف أمره.. ولم أجد أمامي سوى العودة للأسف.

لقد خاب أملنا في سندنا الوحيد.. وما أتعس ذلك الشعور!..

حزنتْ أمي ولم تبكِ.. حتى أنا لم أشرع في البكاء حينها..

يبدو أن مخزن دموعنا قد فرغَ في هذا المستشفى..

ولم يعد هناك المزيد..

الآن فهمنا: لماذا اتصل مازن مع زوج فرح..

لم يهدده بالتأكيد كما أدعى؛ رفضاً لاعتدائه على شقيقته الكبرى..

يبدو أنه أخبره بما فعلته فرح في منزلنا، وبشكواها إلى والدتي..

لذلك انفجر ذلك اللعين، وحاول الاعتداء عليها بسبب فعلتها هذه..

مازن.. لقد وصل كرهكَ في قلبي إلى ذروته..

لن أغفر لك أبداً..

على الرغم من كل هذا.. لم تتجرأ فرح أن تورّط شقيقها مازن..

حتى والدتي.. شعرتُ من ردة فعلها، بأنها تؤيد تصرف أختي!

لم تتغير أمي على الرغم من كل ما حدث..

ما زالت تخشى الضرر على مازن، ولا تتقبل خسارتهُ مهما بدر منه..

للأسف "فكرة" الحاجة إلى وجود "ذكر" في حياتنا..

فكرة مسيطرة عليها تماماً، بشكل غير مبرر!

فقلب الأم الذي شاهدتهُ ضعيفاً وعطوفاً خلال الأيام الماضية..

بدأ يعود إلى وضعهِ السابق، بعد أن هدأت جميع الأحداث نسبياً!!

بعد أيام قليلة..

أجرتْ أختي عملية لتثبيت كسر من الكسور.. وتكللت بالنجاح..

ودخلت بعد ذلك فترة نقاهة وعلاج، وابتدأت بالتعافي شيئاً فشيئاً..

علمت فرح بإعاقتها بشكل تدريجي.. وبوضعها الجديد..

كيف لشخص أن يتلقى خبر كهذا.. لن تستطيع المشي مرة أخرى!

بكت.. ثم هدأتْ.. ثم تقبلت.. ولكنها اكتأبت... وتلك أخطر المراحل..

مشكلة إن لم تجد من يبقى حولها.. ويشعرها بأنها ما زالت قوية..

لم تعد فرح التي أعرفها.. أصبحت هادئة.. وبخيلة في الحديث بشكل ملحوظ.

مما زاد حزننا.. وصل إلينا خبر يفيد بأن الجهات الأمنية قد أطلقت سراح زوج فرح.. بعد أن أثبتت التحقيقات أنه بريء من تهمة محاولة قتل زوجته.. لقد نفذ بجلده..

حتى أنه لم يُفضح أمر تجارته بالممنوعات..

قمة الظلم.. ولكن القوانين لا تحكم إلا بعدما تتوفر الأدلة للإدانة..

وهذا هو المتعارف عليه في كل مكان.. وعليه هذا هو قمة العدل..

بعد قرابة ثلاثة أسابيع..

استقرت حالتنا النفسية قليلاً.. وبدأنا نتأقلم مع وضعنا..

فبدأت فرح بمرحلة العلاج الطبيعي، تمهيداً للخروج من المستشفى.. هي فقط تحتاج إلى الوقت كي تلتئم بقية عظامها المكسورة بشكل كامل..

كان مازن نادراً ما يتواصل مع والدتي من خلال الهاتف..

وأحياناً معي.. وكنتُ مضطرة للتواصل معه حينها..

حيث كانت تأمرني والدتي بذلك أحياناً.. وكنتُ أستجيب..

أقل من شهر.. أصبحت فرح في البيت.. وفي غرفتنا.. وعلى سريرها لكن هذه المرة كان بجوارها ضيفٌ معدنيٌّ.. إنهُ الكرسي المتحرك..

كنت أنا ووالدتي من نعاونها على قضاء حاجاتها..

لم يمضِ على عودتها سوى ثلاثة أيام..

حتى وصل إلينا خبر طلاقها!

لقد استغنى عنها بكل سهولة، بعدما علم بإعاقتها الدائمة!!

قمة الحقارة والوضاعة!.. كيف لهذا النوع من البشر أن يحيا بيننا؟

لم تحزن أختي فرح أبداً.. بل اعتبرت ذلك راحة لها..

للأسف، لم أكن قوية كأختي..

فوجدتُ نفسي أبكي وحدي في الحمام..

حتى لا تراني وتتأثر.. كنتُ أبكي كثيراً وبحرقة..

أما والدتي فقد حزنت كثيراً..

وكانت تواسي فرح وتوافقها في قناعاتها وأفكارها..

بأن هذا الطلاق هو خيرٌ لها، ولا يستحق الحزن عليه إطلاقاً..

حاولت إقناع أمي مراراً وتكراراً..

أن نبلغ الشرطة عن متاجرته بالحشيش كي نورطه..

ولكنها حذرتني من ذلك، وتوعدتني بالويلات إن عدتُ للتفكير بالأمر..

لأن تورط طليق فرح.. يعني تورط مازن أيضاً !!

لا أعلم إلى متى سوف نضحّي من أجل هذا الأخ الحقير؟..

لقد تجاوزنا تلك الأحداث بكل فظاعاتها وبشاعتها مع مرور الوقت..

لم يكن ذلك بمحض إرادتنا.. بل بمحض إرادة الزمن الذي يمضي..

هو ما ساعدَنا على أن نتجاوز أحداثاً سيئة وبشعة كهذه..

أصبحتْ بفضلهِ من الماضي..

لكن المؤلم في هذا.. أنها ستبقى في الذاكرة دائماً.. للأسف!..

المهم أننا تغيرنا قليلاً نحو الأحسن.. ولكن لم يتغير مازن بعد!!

عندما تنفذ خيارات الحياة..

نختار الهرب مجبرين.. تجنباً من اختيار الموت!

بعد فترة من علاقتي مع الشاب جمال..

والتي امتدت قرابة السنة.. لم أدرس فيها أي شيء..

وفي إحدى المكالمات المرئية المتكررة بيننا..

باغتني بكلمة لم أتوقع توقيتها أبداً.. قال لي ومن دون تمهيد:

- سارة.. أُحبكِ..

شهقتُ؛ حتى كاد كوب الشاي أن يسقط من جانبي..

وأغلقتُ المكالمة فوراً..

لقد تحولَ وجهي إلى اللون الأحمر، بل إلى جميع ألوان قوس قزح!

شعرتُ كما لو أنَّ بداخلي مياهاً لأنهار ناعمة.. تسير ببطء وتتجول في أوردتي دون توقف.. لقد وقع في الحب كما وقعتُ أنا قبله..

إنها المرة الأولى التي أعيشُ فيها هذا الشعور..

لقد قام بانتشالي من معظم الآلام التي مررتُ بها..

والتي سبَّبتها لي الأحداث القاسية والمتتالية..

شعرتُ باهتمام جمال أكثر وأكثر..

ما يعجبُني عندما أتحدث معه.. هو استماعه* فلم أكن أجد من يستمع إليَّ في منزلنا.. لا والدتي ولا أخي..

ولا حتى والدي قبل وفاته.. أختي الكبرى كانت تقدم النصائح.. لذلك.. وجدتُ نفسي أخبر جمال بمنعطفات معاناتي..

وبكل ما مررتُ به مع أسرتي.. وبطريقة تعامل أخي معنا بعد وفاة والدي.. وبما وقع على أختي من ظلم..

نعلم أن استماعهم لنا.. لا يعطي حلولاً..

ولكننا نؤمن بأن هكذا لحظات..

تخلق في داخلنا شعوراً مريحاً يفوق في راحته لنا..

كما لو أننا عثرنا على كل الحلول!!

وجدته يعرض عليّ العديد من حالات الفتيات المعنَّفات في بلادي..

وكيف انتهى بهنَّ المطاف.. وحالات قرَّرنَ على إثرها الهرب من جحيم العائلة، وأنقذن بذلك حياتهن!

---

* في مثل هذا العمر.. لا تحتاجُ الفتيات إلا إلى الاستماع لهنَّ.. لا يحتجنَ إلى المقاطعة أو النقاش أو فرض النصائح.. قد يرى البعض تفاهة في هذا الشيء.. ولكنه خطير جداً في حال انعدامه.. وعليه تجد الفتاة نفسها أمام خيارات ليست من اختيارها.. قد يفرضها عليها واقعها السيء.. ومن دون أن تشعر هي بذلك.. فقط لأنها تبحث عمّن يستمع إليها.. ولا تجده.

عرضتُ عليه فكرة كانت تراودني بينَ فترةٍ وأخرى..

وهي بأن أرفع شكوى ضدَّ أخي إلى الجهات المختصة..

ولكنه حذّرني من ذلك بطريقة غريبة!!

قال لي بالحرف الواحد:

- الفتيات اللواتي تورطنَ بعدما أقدمنَ على فتح بلاغ رسمي.. منهنَّ من تمت إعادتهن إلى منازلهنَّ، ومنهنَّ من نجحنَ في اللجوء إلى دار الحماية*.. واكتشفنَ أنهن قد وقعنَ في جحيم آخر.

---

* ظهرتْ العديد من الأخبار السيئة والمحزنة، والتي تخص التجاوزات في حق بعض الفتيات في دار الحماية في مدينة (جدّة).. مما دفع بعضهن إلى الشكوى، والبعض الآخر اخترنَ الهروب لهذا السبب أو لأسباب أخرى..

حيث يقول الخبر، والذي نشر في صحيفة (عكاظ) المحلية الشهيرة:

في وقتٍ سجلت دار الضيافة للفتيات بجدّة (التي تستضيف من انتهت محكوميتهنّ الشرعية) حالتي هروب لفتاتين، ارتفعَ عدد حالات الهروب من الدار إلى عشر حالات، خلال السنوات الثلاثة الماضية، بعدما سُجل سابقاً هروب ثماني حالات، إضافة إلى حالة قتل شهيرة قبل عامين لإحدى النزيلات، عندما أجهز عليها شقيقها بأربع رصاصات أثناء وصولها إلى عملها.

وتحت وصف "مختفيتين" فتح فرع وزارة العمل والتنمية الاجتماعية في منطقة مكة المكرمة بلاغاً لدى الجهات الأمنية للبحث عن الفتاتين، وأكد المتحدث باسم الوزارة (خالد أبا الخيل) أن الجهات الأمنية شرعت في استكمال الإجراءات الرسمية، والتحقيق حول الواقعة.

أما مدير عام الفرع (عبدالله آل طاوي)، الذي أكد لـ"عكاظ" أنه سيستلم مهمات عمله الجديد اليوم الأحد، فقال: =

ثم بدأ بإرسال الكثير من الروابط لأخبار صحف ولقاءات تلفزيونية.. لفتيات تعرضنَ لمثل هذه الظروف، وتورَّطنَ بسبب إقدامهنّ على البلاغ.. أرسلَ ذلك ليثبت لي صحة كلامه..

حاولتُ مشاهدة كل ما أرسله لي، لكنني شعرت بالصداع وبالضيق فلم أكمل متابعة أي شيء..

ثم بعثَ لي اسم حساب على تويتر يحمل اسم "منيرة"

أخبرني أنه لفتاة سعودية مثقفة جداً.. لديها خلفية كبيرة في القوانين ومتابعة كل جديد يخص حقوق الفتاة السعودية تحديداً..

=قدّمنا بلاغاً بهروب فتاتين، كانتا في الدار بعد خروجهما من السجن، ورفضتْ أسرتاهما استلامهما، وجار إكمال الاجراءات النظامية.

وأكدت مصادر لـ"عكاظ" أن وزير العمل والتنمية الاجتماعية، يتابع مجريات التحقيق في حالات الهروب، وينتظر تقرير اللجنة المشكلة لهذا الغرض.

وأبلغت مصادر أمنية لـ"عكاظ" أنه تمت مباشرة الواقعة بتشكيل فريق عمل من شعبة التحريات والبحث الجنائي؛ للتحقيق حول الواقعة.

وكانت الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان (فرع جدة) قد تلقت شكوى من مواطنة تقيم في الدار، تتهم فيها دار الحماية بمخالفات عدة، وقررت الجمعية التحقق من الشكوى.

من جانبهم طالب مختصصون بإيجاد آلية وبرامج واضحة تحدد العمل والبرامج الخاصة بالمقيمات في دور الضيافة، في ظل شكاوى متبادلة حول الخدمات والبرامج المقدمة لهن.

المصدر: صحيفة عكاظ.. نشر في 4 مارس 2018 .

بالإضافة إلى توثيقها لقصص التعنيف، وكشفها ودعم معالجتها..

طلبَ مني متابعة الحساب.. وفعلتُ ذلك من أجله..

وبالفعل.. كان حسابها لا يهدأ..

مطالباتها التحريضية لا تنقطع.. والذي أزعجني ولفتَ نظري..

هو دعمها وتشجيعها للفتيات على الهروب خارج الوطن!

الحقيقة.. هذه الحالات والتغريدات تركتْ لديَّ أثراً نفسياً سلبياً!

فأحسستُ ببعض الرهبة من فكرة البلاغ حول تجاوزات أخي مازن.. خوفاً من أن ألقى المصير ذاتهُ..

لا يهمني شيءٌ الآن.. طالما أصبح جمال في حياتي..

أعتقد أنه قد أصبح كل حياتي!!

مع مرور الأيام، واستمرار علاقتي الجميلة مع جمال..

وجدتُ نفسي في مأزق لا تتمناه أية فتاة في عمري!

لقد حاولتُ اعتزال المشاكل، ولكنها أبت أن تعتزلني..

حدثَ مالم يكن في الحسبان..

ذات يوم..

أخبرتني والدتي أنَّ أحد أصدقاء والدي المقربين في حياته..

قد تقدم إلى أخي مازن طالباً القرب.. وأنه طلبني بالاسم!

رفضتُ فوراً، وأنا أصرخ في وجه أمي، من دون أن أشعر..

ولكنها ردَّت عليّ ردّاً أدهشني.. بل أرعبني.. حيث قالت:

- بعد حادثة أختكِ، لم أعد أثق بشباب هذا العصر يا سارة.. هل تريدين الارتباط بشاب تافه، أخلاقه كأخلاق زوجها؟ أو حتى كأخلاق أخيكِ مازن؟

- ومن أخبركِ أنني أريد الارتباط بأحد الآن؟

- هذا مصير كل فتاة.. وهذا الرجل يكبركِ بالسن صحيح.. ولكن ليس بذلك الفارق الكبير.. يكبركِ حوالي ثلاثين سنة فقط.. يهمني أن أطمئنَّ عليكِ برفقة شخص مستقر مادياً وعائلياً.. أذكر علاقته مع والدكِ.. كان يذكره بالخير دائماً.

لم أستوعب طريقة تفكير والدتي..

لقد عادت إلى شخصيتها التي أعرفها.. قاسية.. عنيدة.. سيئة..

هكذا معظمنا.. يمارس جبروتهُ إلى أن يمر بمنعطف يُسقطه..

يُظهر فيه كل ضعفه وعاطفته.. وما أن يمر هذا المنعطف..

حتى يعود إلى ممارسة ما كان عليه من جبروت!

تلك هي أمي..

أعرفها جيداً.. لن تتراجع عن رأيها طالما اقتنعتْ بهِ..

لذلك ركضتُ نحو غرفتي وأنا أبكي.. وأغلقتُ الباب..

حاولت أختي فرح أن تلحق بي بكرسيها المتحرك..

ولكنني كنتُ أسرع منها..

طرقتْ الباب طالبة الدخول.. وكنتُ أرفض استقبال أحد..

أصرت عليّ، وتعاطفتُ مع حالتها..

ففتحتُ لها الباب، وأدخلتها ثم أغلقتُه..

جلستُ على السرير.. فاقتربتْ مني كي تمسح دموعي..

تريد أن تخفف ألمي، وهي من تحتاج إلى من يخفف ألمها..

يُقال.. فاقدُ الشيء لا يُعطيه.. ولكن مُكتسب الشيء المؤلم..

أفضل من يُبعد الألم عنا بسبب خبرته!

قد تجدُ مجروحاً.. يزيلُ عنك الجرح؛ حتى لا تمر بما مرَّ به..

حتى وإن كان فاشلاً في تنفيذ نصائحه مع نفسه..

إلا أنه قد يكون أفضل من يعرف الطريق نحو الخلاص..

على الرغم من خوفه وتردده من إنهاء معاناته هو!

وهذا ما كانت عليه أختي الكبيرة فرح.. إلى حدٍ ما..
جراحُها جعلتها تساعد الجميع؛ كي لا يعانون كما عانت هي..
أخبرتُها أنني لا أريد زواجاً مثل هذا..
وحاولت هي تهدئتي.. وللأسف حاولتْ إقناعي!
وجدتُها موافقة.. ولكنها ليست مقتنعة قناعة كاملة!!
ولكنَّ عذرَها كان كعذر والدتي.. بأنَّ الرجل الكبير بالسن..
هو أضمن من أي شاب، قد يكون ما زال طائشاً..
وخصوصاً أن هذا الشخص صديق سابق لوالدنا..
وسوف يكون أكثر اهتماماً بي وبنا جميعاً..
قلتُ لها منفعلة:

- هذا التعميم خاطئ، بل هو من الغباء.. ليس كل الشباب كزوجكِ.. وليس كل الرجال الكبار جيدين.. أتذكرين والدنا؟ كان سيئاً وعصبياً ولا يكترث لنا ولا للمنزل.. هل تضمنين بألَّا يكون صديق والدي.. يشبهه في طباعه؟!

صمتت قليلاً، وكأنها لم تتوقع ردة فعلي وحديثي المنطقي..
ثم قالت على مضض:

- ما تقولينهُ صحيحاً.. لا أحد يضمن حقيقة أحد، ولكنني أختكِ الكبرى وأنا قلقلة عليكِ، ولا أريد أن يتكرر معكِ ما حدث معي.. هذه كل الحكاية يا سارة.
- يجب أن تقلقي عليّ من هذه الزيجة.. وعليكِ مساعدتي.
- كيف؟
- أن تقنعي والدتي بحجم هذه الكارثة، التي تنوي زجّي بها..
- لن تستمع إليّ.. تعلمين ذلك.. ولكني أعدكِ بأن أحاول.

بعد يومين فقط.. وبعد العصر تحديداً..

كنتُ قد أعددتُ كوب قهوة.. وجلستُ في الصالة أمام التلفاز..

وقبل أن أرتشف رشفتي الأولى..

وجدتُ أمي قد وقفت أمامي هي ومازن؛ كي يُخبراني..

بأنَّ الرجل المتقدم لي، سوف يزورنا اليوم بعد المغرب..

ويجب عليّ الاستعداد من أجل النظرة الشرعية!!

لم أكن مهيَّأة لتلقّي خبر كهذا..

فأسقطتُ كوب القهوة من يدي.. فتشَّهم متناثراً على الأرض..

ثم أخبرتهما غاضبة بصوتٍ عالٍ.. والشرر يتطاير من عينيَّ:

- لن يشاهدني إلا وأنا جثة هامدة.

غضب مازن كثيراً، وحاول الاعتداء عليّ بالضرب كعادته..

ولكنَّ والدتي حالت بيني وبينه..

تدخَّلت أختي فرح جارَّةً كرسيها المتحرك، محاولة التهدئة كعادتها.. ولكن لم يستجب لها أحدٌ..

قبل أن يشتمني مازن ويهددني.. وجدتُ نفسي من دون إرادة قد أرسلتُ إليهِ بصقة طائرة حطَّت بين عينيه!

فثار غضبه، وطار عقله من تصرفي..

أبعدَ والدتي من أمامي بقوة، وأسقطها أرضاً..

ووجدتُ نفسي في مواجهته!

مواجهة غير متكافئة أبداً.. ليست عادلة..

حاولتُ الهرب، لكنه أمسكني من شعري، وأنزلني أرضاً..

آخر ما توقعتهُ في هذا اليوم، وفي هذا الوقت تحديداً..

أن أكون بين يديّ أخي مازن!

صفعاتٌ متتالية، لم أشعر إلَّا بأول صفعتين منها فقط..

و بقية الصفعات كانت تتوالى، وبسبب الخِدر في وجهي، لم أعد أشعر بها..

تدخلتْ والدتي، وسط صراخ أختي فرح..
ولكن أمي أضعف من أن تقاوم شاباً قويَّ الجسم كمازن..
فدفعها مرة أخرى..
أن يضربني أخي الذي لا يملك من الأخوة سوى اسمها..
هذا طبيعي في عائلة مثل عائلتنا.. ولطالما حدث وتكرر ذلك..
لكن غير الطبيعي.. هو اندفاعه ورعونته في طريقة ضربه لي!!
شعرتُ كما لو أنه عدوٌّ.. عدوٌّ يبحث عن ثأر مدفون..
قام بدعسي بقدمه عدة مرات.. كان يكرر دعساته على صدري!
من دو رحمة أو توقف.. وسط توسلات أمي وفرح كي يتوقف..
شعرتُ حينها كما لو أنَّ صدري سينفجر!!
كنتُ على وشك الاختناق أو الموت..
لم يوفقهُ عن الضرب سوى قفز أختي من فوق الكرسي وزحفها تجاهي.. ثم حمايتها لي بجسمها المعاق..
عندها، توقف ذلك النذل من مواصلة ضربه لي..
ثم غادر المنزل غاضباً كالجبان..
بكينا جميعاً، وكانت والدتي أقل من يبكي بيننا..

بعد نصف ساعة تقريباً، لم أنهض فيها من موقع ضربي..
استعدتُ قليلاً من أنفاسي المتشظّية، وعافيتي المنهكة..
وبدأتُ أتحسَّسُ آلامي..

وجدتُ صورة حبيبي جمال، قد تشكلت في مخيلتي..
واستذكرتُ آراءهُ جميعها تجاه ما يفعلهُ أخي..
وتأكدتْ لي مقولته: بأنَّ الصمت على تجاوزاته العنيفة..
لا يبعد شره عنَّا.. بل يجعله يتمادى أكثر!
فاتَّخذتُ قراراً لم يخطر على بال أحد.. ولا يفضِّله جمال!
توجهتُ إلى غرفتي، ولبستُ عباءتي..
ثم انتظرتُ انشغال والدتي.. حتى تأكدتُ أنها في المطبخ..
فركضتُ مسرعة نحو باب منزلنا، وهربتُ إلى الشارع..
حاولتْ أختي إيقافي، ومن ثم والدتي التي لم تستطع اللحاق بي..
توجهتُ نحو الشارع الرئيسي، والغضب قد كسا وجهي الذي تعرَّضَ للتعنيف، وللضرب، وللقهر..
استوقفتُ سيارة أجرة.. وتوجهتُ إلى مركز الشرطة!
نعم.. قررتُ في لمح البصر، أن أقدّم شكوى بحق أخي مازن!!
تواصلتُ مع جمال وأنا في الشارع.. وأخبرتهُ بما حدث معي..

حاول أن يمنعني بإصرار..

وأخبرني بأنَّ لديه العديد من الاقتراحات..

أفضل من قراري هذا.. ولكنه لمسَ إصراري..

فتقبَّل الواقع، ثم كتب لي عبارة لم أنسها حتى هذه اللحظة:

من يدري؟.. فقد تكون محاولتكِ هذه هي بداية الخلاص!

لم أفهم مقصده! إلَّا بعد فوات الأوان!!

المهم.. بدأ جمال بمواساتي، وبتخفيف الألم عليّ بكلماته الساحرة كعادته.. حاولتْ والدتي، وكذلك أختي الاتصال بي..

ولكني لم أجبْهُما..

وصلتُ.. حاسبتُ سائق الأجرة.. ثم توقفتُ أمام بوابة مركز الشرطة.. الحقيقة شعور غريب أصابني..

لكم أن تتخيلوا.. بأنني لم أتصل في يوم من الأيام بالشرطة..

فكيف يغدو الأمر الآن؟ وأنا أذهب إليهم بنفسي!

دخلتُ القسم، وسألتُ أحد رجال الأمن عن قسم الشكاوى..

فأشار لي إلى مكتب الضابط..

توجهتُ إليه، وكان هناك العديد من المراجعين، والمشتكين قبلي..

كل شخص لديه مشكلتهُ الخاصة والمختلفة..

حتى أتى دوري..
ووجدتُ نفسي أبكي، وأخبر الضابط بكل شيء..
طلبَ مني الهدوء والجلوس.. ثم طلبَ لي الماء..
وقام بإجراء اللازم، وذلك بتكليف أحدهم بأن يأخذ معلوماتي..
أخذوا مني رقم هاتف أخي مازن.. بصفته المشتكى عليه..
ووليّ أمري في الوقت نفسه!
بعد ساعتين من الانتظار.. وجدتُ مازن يقف أمامي برفقة والدتي!!
أغلقَ الضابط الباب..
ثم بدأ بسرد ما ذكرتهُ له.. وتوعَّدَ مازن بأشد العقوبات؛
إن تكرر ذلك..
ثم اقترح علينا جميعاً، أن يتم حل الموضوع بشكل ودّي..
بدلاً من التوجه إلى الجهات الأعلى، وعندها، قد يتفاقم الأمر بيننا كعائلة.. وتتشعب الأمور..
رفضتُ ما قاله، وطلبتُ منه أن يُلقي القبض على مازن فوراً..
ولكنهُ أفهمني بأن الأمر ليس بتلك السهولة كما أتوقع..
يجب عرض جسدي على الطبيب المختص في هكذا حالات..

وبناءً عليه يتم إثبات حالة التعدّي.. والعديد من الخطوات التي تأخذ وقتاً لإثبات بأن المعتدي هو أخي..

سألتهُ سؤالاً مباشراً، وسط صمت والدتي، ونظرات مازن الغاضبة:

- ومن سيأخذ لي حقي من أخي، الذي كاد أن يقتلني ضرباً؟

- نحنُ طبعاً يا أختي.. ولكن في مثل هذه الخلافات الأسرية.. نفضّل أن تحلَّ الأمور ودّياً.. نظراً للخصوصية لدى عائلاتنا أنا أتمنى لكِ الخير.. بعيداً عن الإجراءات الطويلة.

تدخلتْ والدتي وهي كاظمة غيظها؛ بسبب تصرفي، وقالت:

- لا نريد أن نفضح أنفسنا بسبب خلاف أسري بسيط.. سوف نحل الأمر فيما بيننا، في منزلنا عندما نعود.

فتدخل الضابط كي يطمئنني قائلاً:

- سوف أجعلُ أخاكِ يوقع تعهداً الآن، بعدم التعدي عليكِ مرة أخرى.. وإذا تكررتْ فعلته؛ سنتخذ الإجراءات فوراً.. ما رأيكِ يا أختي؟

استفزَّ كلام الضابط أخي مازن، ورفض التوقيع على أي شيء..

ولكن الضابط حذّره من أنَّ تسلطه وتجاوزاته لن تمر مرور الكرام.. وأخبرهُ باحتمال تطبيق القانون في حقه فوراً؛ إن لم يستجبْ..

فخاف من الأمر وتقبّل الفكرة.. فوجدتُ نفسي قد تقبلت الفكرة أيضاً.. فهذا التعهد، قد يؤدب مازن قليلاً..

ويجعلهُ يفكر ألف مرة قبل التعدّي عليّ.. أو على والدتي أيضاً..

وبالفعل وقّع على التعهد.. وتم إغلاق المحضر بالتراضي..

وعدتُ معهم إلى المنزل.. جميعنا كنا صامتين في السيارة..

حتى وصلنا إلى منزلنا.. توجهتُ إلى غرفتي مسرعة وخائفة..

وأغلقتُ الباب.. دقائق، وسمعتُ على الباب ضربات متتالية..

كان مازن يهدّدني ويتوعّدني بأنني سوف أدفع ثمن تصرفي..

وطلب مني أن أفتح الباب، ولكني لم أفتح..

لم يمكث سوى بضع دقائق، ثم غادر المنزل للسهر كعادته..

عاتبتني أختي فرح كثيراً على تصرفي..

كانت غاضبة جداً مني، بسبب تهوري كما تقول..

ولكني لم أكترث لذلك.. فما فعلتهُ اليوم جرأة كبيرة، جعلتني أشعر ببعض القوة.. وبأنَّ لديّ ظهراً أستندُ عليه كلما احتجتهُ..

الشرطة.. صحيح أنني لم أستفدْ منهم تلك الفائدة المرجوّة..

ولكنها فائدة، وخيرٌ من العدم..

مرت الأيام كعادتها..

ولم تكفّ والدتي من تكرار موضوع الرجل المتقدم للزواج..

وفي كل مرة كنتُ أرفض بغضب.. ولا فائدة..

أخبرتني بأنه عرضَ مهراً كبيراً، ومنزلاً مستقلاً..

ولكنَّ تلك المغريات كلّها لا تهمني..

فأنا أعيش قصة حب.. بطلُها جمال.. ولا أريدُ غيره..

صحيح أنه لم يعرض عليّ الزواج.. ولكنني أشعر بأنه يريدُ ذلك..

ظلَّ البيت كئيباً..

أمي غاضبة لوحدها.. وأختي عاجزة ومكتئبة..

وأخي يمارس سطوتهُ علينا ويُطيلُ سهراته..

وأنا منعزلة مع جمال..

لاحظتْ أختي انشغالي الدائم بهاتفي.. وفي كل مرة تسألني عن الأمر.. كنتُ أتعلل باللعب قليلاً، كي أُبعد الملل..

مكالماتي المرئية أصبحتْ قليلة، منذ عودة فرح للبقاء في غرفتنا..

ولكنني لم أنقطع عن ذلك، كلما سنحت لي الفرصة..

هذه العزلة التي اختارها أفراد عائلتنا.. جعلتْ والدتي تقترح اقتراحاً غير مألوفٍ علينا، وليس من عادتها!

لقد اقترحت والدتي فكرة مثيرة وجديدة..

عرضتْ علينا أن نخرج من هذا الجو المتعب للتنفس في الطبيعة..

وأن نسافر سوياً إلى الخارج!

لم نتوقع أن تُقدم والدتي على فكرة كهذه..

عرضتْ علينا فكرة السفر إلى تركيا؛ من أجل السياحة!

فرحنا كثيراً أنا وأختي بهذه البادرة..

فجميعنا نحتاج لمثل هذه الرحلة.. وخصوصاً فرح المسكينة..

وعندما علم مازن بالأمر.. وافق فوراً.. طالما أنه لن يدفع شيئاً..

فأمي مَن سوف تتحمل نفقات الرحلة، من المال الذي كانت تجمعه.

ما ضايقني قليلاً.. هو حديثُ والدتي لي..

أخبرتني أنها تأمل بأنَّ هذه الرحلة قد تجعلني أعيدُ حساباتي..

فيما يخص موضوع زواجي!

فطلبتُ منها أن تغلق الموضوع نهائياً حتى نعود..

فتعاملتْ مع كلامي كفاتحة خير إيجابية.. ولم تكن كذلك..

جهَّز أخي كل شيء.. وبعد شهر من الترتيبات والاستعداد..

سافرنا إلى اسطنبول..

أول ثلاثة أيام، كانت من أروع ما يكون!..

أعجبتنا الطبيعة والمأكولات، وحتى جمال الطقس..

وبعدها عاد الشجار بيننا!

للأسف العائلة المفككة، تبقى عائلة مفككة..

فمن أبسط نقاش أو اعتراض على اختيار مطعم معين..

كان أخي مازن يشتاط غضباً، ويفسد كل شيء بسبب غضبه..

مرة من المرات ونحن في الفندق.. تمادى كثيراً بألفاظه..

حتى اعترضتُه، وطلبتُ منه أن يكون رجلاً معنا..

فلم يتمالك غضبه تجاهي، وقام بضربي ضرباً مبرحاً..

جعلني أبكي كثيراً.. وأقسم قسماً مغلظاً بأننا عندما نعود إلى بلادنا.. سوف ينهي موضوع زواجي من صديق والدي!!

عافت نفسي كل شيء؛ بسبب هذا الموقف..

وبسبب تلك المشاجرة، لم أغادر الفندق ثلاثة أيام متتالية..

وعليه، اضطرت والدتي وأختي للبقاء معي..

ولم يكترث هو لوضعنا.. بل واصلَ طلعاته وسهراته كل ليل!

لم يلطّف وحدتي وكآبتي في تلك الأيام سوى.. جمال..

لم ينقطع عن التواصل معي.. حتى أعلنها بكل صراحة:

- نحن نحبُّ بعضنا.. أليس كذلك يا حبيبتي سارة؟

ما رأيكِ أن أتزوجكِ، وأنقذكِ من جحيم أخيكِ؟

لقد صدمني بعرضه هذا!

كنتُ أتمنى أن يعلنه لي حقاً.. ولكن لم أتوقع أن يحدث ذلك وأنا في تركيا.. وفي هذه الظروف!..

شعرتُ بالخجل.. لكنه شعور لم يدم طويلاً.. فهناك ما ينتظرني!

فإمَّا أن أعيش جحيم الزواج من رجل يكبرني كثيراً ولا أريده..

أو أن أعيش جحيم آخر برفقة والدتي وأخي مازن..

أخبرتهُ بموافقتي على استحياء.. ووجدتُ نفسي أتجاوب..

فحالتي النفسية كانت تدفعني للبحث عن أي مأوى يحتويني بحب..

حضرتْ في مخيلتي الكثير من الأمور..

أهمُّها.. أنَّ والدتي وأخي سيرفضان حتماً زواجي منه..

فهو من جنسية أخرى ولا يعرفانه.. وغيرها الكثير من العقبات..

فسألتهُ بخجل:

تدخلتْ والدتي، وسط صراخ أختي فرح..
ولكن أمي أضعف من أن تقاوم شاباً قويَّ الجسم كمازن..
فدفعها مرة أخرى..
أن يضربني أخي الذي لا يملك من الأخوة سوى اسمها..
هذا طبيعي في عائلة مثل عائلتنا.. ولطالما حدث وتكرر ذلك..
لكن غير الطبيعي.. هو اندفاعه ورعونته في طريقة ضربه لي!!
شعرتُ كما لو أنه عدوٌّ.. عدوٌّ يبحث عن ثأر مدفون..
قام بدعسي بقدمه عدة مرات.. كان يكرر دعساته على صدري!
من دو رحمة أو توقف.. وسط توسلات أمي وفرح كي يتوقف..
شعرتُ حينها كما لو أنَّ صدري سينفجر!!
كنتُ على وشك الاختناق أو الموت..
لم يوفقهُ عن الضرب سوى قفز أختي من فوق الكرسي وزحفها تجاهي.. ثم حمايتها لي بجسمها المعاق..
عندها، توقف ذلك النذل من مواصلة ضربه لي..
ثم غادر المنزل غاضباً كالجبان..
بكينا جميعاً، وكانت والدتي أقل من يبكي بيننا..

بعد نصف ساعة تقريباً، لم أنهض فيها من موقع ضربي..
استعدتُ قليلاً من أنفاسي المتشظّية، وعافيتي المنهكة..
وبدأتُ أتحسَّسُ آلامي..
وجدتُ صورة حبيبي جمال، قد تشكلت في مخيلتي..
واستذكرتُ آراءهُ جميعها تجاه ما يفعلهُ أخي..
وتأكدتْ لي مقولته: بأنَّ الصمت على تجاوزاته العنيفة..
لا يبعد شره عنَّا.. بل يجعله يتمادى أكثر!
فاتَّخذتُ قراراً لم يخطر على بال أحد.. ولا يفضِّله جمال!
توجهتُ إلى غرفتي، ولبستُ عباءتي..
ثم انتظرتُ انشغال والدتي.. حتى تأكدتُ أنها في المطبخ..
فركضتُ مسرعة نحو باب منزلنا، وهربتُ إلى الشارع..
حاولتْ أختي إيقافي، ومن ثم والدتي التي لم تستطع اللحاق بي..
توجهتُ نحو الشارع الرئيسي، والغضب قد كسا وجهي الذي تعرَّضَ للتعنيف، وللضرب، وللقهر..
استوقفتُ سيارة أجرة.. وتوجهتُ إلى مركز الشرطة!
نعم.. قررتُ في لمح البصر، أن أقدّم شكوى بحق أخي مازن!!
تواصلتُ مع جمال وأنا في الشارع.. وأخبرتهُ بما حدث معي..

حاول أن يمنعني بإصرار..

وأخبرني بأنَّ لديه العديد من الاقتراحات..

أفضل من قراري هذا.. ولكنه لمسَ إصراري..

فتقبَّل الواقع، ثم كتب لي عبارة لم أنسها حتى هذه اللحظة:

من يدري؟.. فقد تكون محاولتكِ هذه هي بداية الخلاص!

لم أفهم مقصده! إلَّا بعد فوات الأوان!!

المهم.. بدأ جمال بمواساتي، وبتخفيف الألم عليّ بكلماته الساحرة كعادته.. حاولتْ والدتي، وكذلك أختي الاتصال بي..

ولكني لم أجبْهُما..

وصلتُ.. حاسبتُ سائق الأجرة.. ثم توقفتُ أمام بوابة مركز الشرطة.. الحقيقة شعور غريب أصابني..

لكم أن تتخيلوا.. بأنني لم أتصل في يوم من الأيام بالشرطة..

فكيف يغدو الأمر الآن؟ وأنا أذهب إليهم بنفسي!

دخلتُ القسم، وسألتُ أحد رجال الأمن عن قسم الشكاوى..

فأشار لي إلى مكتب الضابط..

توجهتُ إليه، وكان هناك العديد من المراجعين، والمشتكين قبلي..

كل شخص لديه مشكلتهُ الخاصة والمختلفة..

حتى أتى دوري..
ووجدتُ نفسي أبكي، وأخبر الضابط بكل شيء..
طلبَ مني الهدوء والجلوس.. ثم طلبَ لي الماء..
وقام بإجراء اللازم، وذلك بتكليف أحدهم بأن يأخذ معلوماتي..
أخذوا مني رقم هاتف أخي مازن.. بصفته المشتكى عليه..
ووليّ أمري في الوقت نفسه!
بعد ساعتين من الانتظار.. وجدتُ مازن يقف أمامي برفقة والدتي!!
أغلقَ الضابط الباب..
ثم بدأ بسرد ما ذكرتهُ له.. وتوعَّدَ مازن بأشد العقوبات؛
إن تكرر ذلك..
ثم اقترح علينا جميعاً، أن يتم حل الموضوع بشكل ودّي..
بدلاً من التوجه إلى الجهات الأعلى، وعندها، قد يتفاقم الأمر بيننا كعائلة.. وتتشعب الأمور..
رفضتُ ما قاله، وطلبتُ منه أن يُلقي القبض على مازن فوراً..
ولكنهُ أفهمني بأن الأمر ليس بتلك السهولة كما أتوقع..
يجب عرض جسدي على الطبيب المختص في هكذا حالات..

وبناءً عليه يتم إثبات حالة التعدّي.. والعديد من الخطوات التي تأخذ وقتاً لإثبات بأن المعتدي هو أخي..

سألتهُ سؤالاً مباشراً، وسط صمت والدتي، ونظرات مازن الغاضبة:

- ومن سيأخذ لي حقي من أخي، الذي كاد أن يقتلني ضرباً؟

- نحنُ طبعاً يا أختي.. ولكن في مثل هذه الخلافات الأسرية.. نفضّل أن تحلَّ الأمور ودّياً.. نظراً للخصوصية لدى عائلاتنا أنا أتمنى لكِ الخير.. بعيداً عن الإجراءات الطويلة.

تدخلتْ والدتي وهي كاظمة غيظها؛ بسبب تصرفي، وقالت:

- لا نريد أن نفضح أنفسنا بسبب خلاف أسري بسيط.. سوف نحل الأمر فيما بيننا، في منزلنا عندما نعود.

فتدخل الضابط كي يطمئنني قائلاً:

- سوف أجعلُ أخاكِ يوقع تعهداً الآن، بعدم التعدي عليكِ مرة أخرى.. وإذا تكررتْ فعلته؛ سنتخذ الإجراءات فوراً.. ما رأيكِ يا أختي؟

استفزَّ كلام الضابط أخي مازن، ورفض التوقيع على أي شيء..

ولكن الضابط حذّره من أنَّ تسلطه وتجاوزاته لن تمر مرور الكرام.. وأخبرهُ باحتمال تطبيق القانون في حقه فوراً؛ إن لم يستجبْ..

فخاف من الأمر وتقبّل الفكرة.. فوجدتُ نفسي قد تقبلت الفكرة أيضاً.. فهذا التعهد، قد يؤدب مازن قليلاً..

ويجعلهُ يفكر ألف مرة قبل التعدّي عليّ..أو على والدتي أيضاً..

وبالفعل وقّع على التعهد.. وتم إغلاق المحضر بالتراضي..

وعدتُ معهم إلى المنزل.. جميعنا كنا صامتين في السيارة..

حتى وصلنا إلى منزلنا.. توجهتُ إلى غرفتي مسرعة وخائفة..

وأغلقتُ الباب.. دقائق، وسمعتُ على الباب ضربات متتالية..

كان مازن يهدّدني ويتوعّدني بأنني سوف أدفع ثمن تصرفي..

وطلب مني أن أفتح الباب، ولكنني لم أفتح..

لم يمكث سوى بضع دقائق، ثم غادر المنزل للسهر كعادته..

عاتبتني أختي فرح كثيراً على تصرفي..

كانت غاضبة جداً مني، بسبب تهوري كما تقول..

ولكني لم أكترث لذلك.. فما فعلتهُ اليوم جرأة كبيرة، جعلتني أشعر ببعض القوة.. وبأنَّ لديّ ظهراً أستندُ عليه كلما احتجتهُ..

الشرطة.. صحيح أنني لم أستفدْ منهم تلك الفائدة المرجوّة..

ولكنها فائدة، وخيرٌ من العدم..

مرت الأيام كعادتها..

ولم تكفّ والدتي من تكرار موضوع الرجل المتقدم للزواج..

وفي كل مرة كنتُ أرفض بغضب.. ولا فائدة..

أخبرتني بأنه عرضَ مهراً كبيراً، ومنزلاً مستقلاً..

ولكنَّ تلك المغريات كلّها لا تهمني..

فأنا أعيش قصة حب.. بطلُها جمال.. ولا أريدُ غيره..

صحيح أنه لم يعرض عليّ الزواج.. ولكنني أشعر بأنه يريدُ ذلك..

ظلَّ البيت كئيباً..

أمي غاضبة لوحدها.. وأختي عاجزة ومكتئبة..

وأخي يمارس سطوتهُ علينا ويُطيلُ سهراته..

وأنا منعزلة مع جمال..

لاحظتْ أختي انشغالي الدائم بهاتفي.. وفي كل مرة تسألني عن الأمر.. كنتُ أتعلل باللعب قليلاً، كي أُبعد الملل..

مكالماتي المرئية أصبحتْ قليلة، منذ عودة فرح للبقاء في غرفتنا..

ولكنني لم أنقطع عن ذلك، كلما سنحت لي الفرصة..

هذه العزلة التي اختارها أفراد عائلتنا.. جعلتْ والدتي تقترح اقتراحاً غير مألوفٍ علينا، وليس من عادتها!

لقد اقترحت والدتي فكرة مثيرة وجديدة..

عرضتْ علينا أن نخرج من هذا الجو المتعب للتنفس في الطبيعة..

وأن نسافر سوياً إلى الخارج!

لم نتوقع أن تُقدم والدتي على فكرة كهذه..

عرضتْ علينا فكرة السفر إلى تركيا؛ من أجل السياحة!

فرحنا كثيراً أنا وأختي بهذه البادرة..

فجميعنا نحتاج لمثل هذه الرحلة.. وخصوصاً فرح المسكينة..

وعندما علم مازن بالأمر.. وافق فوراً.. طالما أنه لن يدفع شيئاً..

فأمي مَن سوف تتحمل نفقات الرحلة، من المال الذي كانت تجمعه.

ما ضايقني قليلاً.. هو حديثُ والدتي لي..

أخبرتني أنها تأمل بأنَّ هذه الرحلة قد تجعلني أعيدُ حساباتي..

فيما يخص موضوع زواجي!

فطلبتُ منها أن تغلق الموضوع نهائياً حتى نعود..

فتعاملتْ مع كلامي كفاتحة خير إيجابية.. ولم تكن كذلك..

جهَّز أخي كل شيء.. وبعد شهر من الترتيبات والاستعداد..

سافرنا إلى اسطنبول..

أول ثلاثة أيام، كانت من أروع ما يكون!..

أعجبتنا الطبيعة والمأكولات، وحتى جمال الطقس..

وبعدها عاد الشجار بيننا!

للأسف العائلة المفككة، تبقى عائلة مفككة..

فمن أبسط نقاش أو اعتراض على اختيار مطعم معين..

كان أخي مازن يشتاط غضباً، ويفسد كل شيء بسبب غضبه..

مرة من المرات ونحن في الفندق.. تمادى كثيراً بألفاظه..

حتى اعترضتُه، وطلبتُ منه أن يكون رجلاً معنا..

فلم يتمالك غضبه تجاهي، وقام بضربي ضرباً مبرحاً..

جعلني أبكي كثيراً.. وأقسم قسماً مغلظاً بأننا عندما نعود إلى بلادنا.. سوف ينهي موضوع زواجي من صديق والدي!!

عافت نفسي كل شيء؛ بسبب هذا الموقف..

وبسبب تلك المشاجرة، لم أغادر الفندق ثلاثة أيام متتالية..

وعليه، اضطرت والدتي وأختي للبقاء معي..

ولم يكترث هو لوضعنا.. بل واصلَ طلعاته وسهراته كل ليل!

لم يلطّف وحدتي وكآبتي في تلك الأيام سوى.. جمال..

لم ينقطع عن التواصل معي.. حتى أعلنها بكل صراحة:

- نحن نحبُّ بعضنا.. أليس كذلك يا حبيبتي سارة؟

ما رأيكِ أن أتزوجكِ، وأنقذكِ من جحيم أخيكِ؟

لقد صدمني بعرضه هذا!

كنتُ أتمنى أن يعلنه لي حقاً.. ولكن لم أتوقع أن يحدث ذلك وأنا في تركيا.. وفي هذه الظروف!..

شعرتُ بالخجل.. لكنه شعور لم يدم طويلاً.. فهناك ما ينتظرني!

فإمَّا أن أعيش جحيم الزواج من رجل يكبرني كثيراً ولا أريده..

أو أن أعيش جحيم آخر برفقة والدتي وأخي مازن..

أخبرتهُ بموافقتي على استحياء.. ووجدتُ نفسي أتجاوب..

فحالتي النفسية كانت تدفعني للبحث عن أي مأوى يحتويني بحب..

حضرتْ في مخيلتي الكثير من الأمور..

أهمُّها.. أنَّ والدتي وأخي سيرفضان حتماً زواجي منه..

فهو من جنسية أخرى ولا يعرفانه.. وغيرها الكثير من العقبات..

فسألتهُ بخجل:

- ومتى تنوي التقدم إلى أهلي؟ قبل أن يجبروني على الزواج من صديق والدي، الذي أخبرتكِ عنه يا حبيبي.

- التقدُّم إلى أهلكِ.. يعني القدوم إلى بلدكِ.. والقدوم إلى بلدكِ تعني حاجتي إلى تأشيرة.. وأنتِ تعلمين صعوبة ذلك.. والأصعب من هذا كله.. لا أتوقع بأنَّ أهلكِ سيقبلون بي.. أنا صريح وواقعي يا حبيبتي سارة.

أحرجني بأعذاره المنطقية.. بل أحبطني.. فسألتهُ ببراءة:

- وكيف سنتزوج إذاً؟

- سوف تأتين إليّ.. إلى كندا..

- نعم؟! مستحيييل.. ما هذا الذي تقوله؟ لن يقبل أهلي بذلك.

- لا تخبريهم.. تعالي..

- كفَّ عن المزاح يا جمال.. أريدُ حلاً حقيقياً.

- أنا لا أمزح يا سارة.. أنقذي نفسكِ من الوقوع في الجحيم.. إنها فرصتكِ الذهبية.. والتي قد لا تتكرر قريباً.. المجهول ينتظركِ عند عودتكِ إلى بلادكِ.

- كيف.. ما الذي يمكنني أن افعله؟!

- اهربي يا سارة.. نحو حُبكِ الحقيقي والوحيد.. اهربي.

كلماته كانت كالزلزال الذي وقعَ عليّ واهتز لهُ كياني..

لا أعلم كيف تجرَّأ، وطلب مني طلباً مرعباً كهذا..

ولكنَّ هذا الزلزال بدأ يهدأ شيئاً فشيئاً.. وتتضح لي الصورة..

وجدتُ أنَّ ما يطلبه مني.. أهون بكثير من الحياة التي تنتظرني!

مع كلماته التي كانت تجتاحني بسهولة، كاجتياح الماء البارد..

وعدني بتوفير كل ما أحتاجه من سكن وطعام واحتياجات أخرى..

وبأنَّ السعادة سوف تنتظرنا كزوجين عاشقين..

ثم عاد ليحذّرني مما ينتظرني، عند عودتي من تركيا..

الضرب.. الإهانات.. الكآبة.. والإجبار على الزواج..

و بعدها.. بالتأكيد خسارة حبي الوحيد!!

توقفتُ عن محادثته وبقيت وحدي؛ كي أستوعب ما عرضه عليّ..

ظلَّ يردد عليّ عرضهُ الجريء.. قرابة خمسة أيام متتالية..

ويتوسل إليّ أن أوافق، تحت ذريعة محبته لي، وبأنه لا يقوى على خسارتي.. والكثير من الأعذار..

وما بينَ جحيم أخي ووالدتي، ومصير الزواج الذي ينتظرني..

وبين احتواء جمال ووعوده لي بالإنقاذ وبالحياة الهادئة..

وجدتُ نفسي قد بدأتُ بتقبل الفكرة!

كنتُ شاردة الذهن في معظم جولاتنا في شوارع إسطنبول..
لا أتحدَّث كثيراً.. ولا أشاركهم الضحكات التي نادراً ما تحضر..
وبعد تفكير عميق.. وخوف من المصير.. ومن مباغتة الوقت..
وبعد إصرار متواصل من جمال..
وافقتُ!!
فرحَ كثيراً بقراري.. ووعدني بأنني لن أندم أبداً..
فقام بنفسه بتجهيز كل شيء بسرعة فائقة وغريبة!!
أخبرني بعد يومين، بأنه حجز لي رحلة دولية..
تنقلني من اسطنبول.. مروراً بكوبنهاجن في الدنمارك..
حيث أمكثُ فيها لساعات.. ثم أنتقل إلى تورونتو في كندا..
الحقيقة أنه أدهشني بسرعة إنجازه للأمور!..
مستخدماً علاقاته داخل البلد وخارجها، التي يتفاخر بها أمامي!!
لا أعلم كيف استطاعَ فعل ذلك؟..
حتى إنه لم يكلفني بدفع أية مبالغ مالية..
لم يطلب مني سوى تنفيذ بعض الطلبات البسيطة..
ثم قام معي بالتخطيط لطريقة هربي من عائلتي..
وحدثَ ما حدث بعد ذلك، كما أخبرتكم سابقاً.. وهربت..

الهروب نحو الأمام المجهول!

وصلتُ إلى وجهتي الأولى.. كوبنهاجن..

بقيتُ في المطار ساعات عديدة؛ كي أنتظرَ الرحلة التالية..

كان المطار مزدحماً، وغيرَ مألوفٍ عليّ..

جلستُ على إحدى كراسي الانتظار، أراقبُ الوجوه..

كنتُ أخشى من شيء واحد فقط..

أن يستوقفني أحدُ رجال الأمن؛ بسبب بلاغ ما.. قد تقدّمهُ عائلتي بسبب اختفائي.. ومن ثم يتلاشى التخطيط والجهد الماضي كلهُ..

مللتُ الانتظار؛ حتى خضعتُ لسلطة النوم لبعض الوقت..

ثم واصلتُ الانتظار مرهقة..

حتى أتت الرحلة التالية إلى تورونتو في كندا..

ومررتُ مرور الكرام، من دون توقيف ولا تعقيد..

تنفستُ الصعداء فعلاً.. مرحلة انتظار أخرى في الجو..

أخيراً وصلتُ إلى كندا.. لا أصدق ذلك!!

أول شيء وقعتْ عليه عينايَ هو العلم الكندي..

العلم الذي يستظلُّ تحته المظلومون.. كما يخبرني جمال دائماً!

لم أتأكد أنني هربتُ فعلاً.. إلا عندما وجدتُ نفسي أقف في الصف.. كي أختمَ جواز سفري من أجل العبور نحو الخارج..

كان المطار مزدحماً ومزعجاً.. ومختلفاً تماماً عن غيره..

الفرحة التي جعلتني أنسى كل عناء القلق.. هي رؤيتي لجمال!

المرة الأولى التي أراه فيها حقيقة.. لا من خلف شاشة الهاتف.

كان يقف خلفَ الحواجز القصيرة..

عرَفني من مسافة بعيدة.. وبالتأكيد عرفتهُ..

رفع يديه وهو يبتسم ملوحاً لي.. وبادلتهُ ذلك والفرحة لا تسعني..

مشيتُ حتى وصلت إليه.. قام بمصافحتي والخجل قد تمكَّنَ مني..

لأول مرة أصافحُ رجلاً غريباً في حياتي..

كان يضحك بقوة، ويردد مندهشاً:

- أيتها المجنونة.. لقد فعلتِها!

ولم أردّ عليه سوى بابتسامة خجولة.. وأنا أقوم بتعديل حجابي..

قدّم لي باقة ورد حمراء كان يحملها..

وعلامات السعادة تملأ وجهي..

ثم قدَّم لي امرأة.. شقراء الشعر.. لم أرها من قبل..

قائلاً:

- حبيبتي سارة.. أقدم لكِ منيرة.. أقصد "بيانكا".. محامية وناشطة كندية.. وصديقة مقربة جداً.

نظرتُ إليها ثم إليه، والدهشة تعلو ملامحي.. ثم سألتهُ بعفوية:

- تقصد منيرة المغردة، التي طلبت مني أن أتابعها على تويتر؟

أجابني ضاحكاً:

- نعم، هي بذاتها.

- ألم تخبرني بأنها سعودية؟!!

واصلَ ضحكاته قائلاً:

- سعودية على تويتر فقط.. لأنها تحبُّكم كثيراً.. قدمت نفسها على أنها فتاة سعودية.. تحبكم إلى درجة الاهتمام بشؤونكم.

الحقيقة لقد صدمَني هذا الكلام كثيراً.. فتدخَّل كي ينهي صدمتي وتحدثَ موضحاً:

- بيانكا امرأة كندية، سوف تعمل على تسهيل الكثير من الأمور هنا من أجلكِ.. لا تقلقي هي تتحدث العربية.. وسوف تكون عوناً لكِ.. سوف تتكفل بأمركِ تماماً.

ابتسمتُ لها، وبادلتني الابتسامة، ثم قالت لي بعد أن صافحتني:

- أهلاً وسهلاً بكِ يا سارة في بلادنا الجميلة.. لطالما حدثني عنكِ جمال.. أخبرني أنكِ فتاة جميلة.. وبعد أن شاهدتكِ أيقنتُ أنه يكذب.. أنتِ تتجاوزين تعابير الجمال.. اختيار موفق وخطير يا جمال.

أحرجتْني كثيراً بكلماتها هذه.. وشعرتُ بالحرارة التي تحيط بوجهي.. خصوصاً أن نظرات جمال لم تفارقني منذ وصولي..

أصرَّ جمال على حمل حقيبتي.. ثم توجهنا جميعاً نحو سيارته..

ذهبنا إلى الغداء.. كنتُ جائعة حقاً.. تناولنا برجر محلّي..

كان شهياً جداً.. وتبادلنا الأحاديث بعيداً عن سبب وجودي في كندا.. الحقيقة لقد كنتُ متوترة..

فلم أعتدْ على الجلوس في مكان عام، برفقة شاب غريب!

لكنه اللقاء الأول.. شعرتُ من تعامل جمال معي كما لو أنه اللقاء العاشر.. كان مندفعاً وطيباً جداً، وحتى بشوشاً..

أخبراني هو وبيانكا بأنهما جهّزا لي غرفة في أحد الفنادق..

وسوف يأخذاني إليها بعد فراغنا من الغداء..

وبالفعل.. توجَّهنا إلى هناك..

لقد كان فندقاً بسيطاً.. لا يرقى حتى إلى مسمّى فندق..

ولكنه مقبول إلى حدٍ ما.. فالأهمّ لديّ أنني حصلتُ على مأوى..

قامت المرأة الكندية بتدبير كل شيء.. بدا لي أن علاقتها ممتازة مع العاملين.. تسلمتْ مفتاح غرفتي، ثم سلمتهُ إلى جمال..

بينما عادت بيانكا للحديث وللضحك مع أحد العاملين..

حملَ حمالي الحقيبة.. ثم طلب مني أن أتبعهُ إلى الغرفة..

وبالفعل تبعتهُ على استحياء..

كان يتحدث بسرعة وبحماس.. ويخبرني بأنه قد أصبح أسعد مخلوق على وجه الأرض؛ بعد مجيئي إليه..

لهجتهُ العربية الحادة، تضحكني قليلاً..

ولكنها جميلة وممتعة بالنسبة لي.. فقد تعودتُ عليها ولم يطرب قلبي لغيرها..

صعدنا من خلال السلم.. لم يكن هناك مصعد..

حتى وصلنا إلى الطابق الثالث.. توقفَ عند أحد الأبواب..

فتحهُ، ثم أدخل حقيبتي، ورحَّبَ بي..

تبادلنا الحديث العفوي والبسيط، بعد أن عاد ليقف أمام الباب..

أخبرني بأنه يجب عليّ أن أرتاح قليلاً من عناء السفر..

وقبل أن يغادر.. طلبتُ منه طلباً كنتُ أحتاجه، ويشغلني جداً..

طلبتُ منه شريحة هاتف محلية..

كي أتواصل مع أختي، واطمئنها.. وبالتالي ستخبر والدتي..

كي يتوقف قلق انتظارهم لي..

شكرني لأنني طلبتُ ذلك، قبل أن يغادر وينسى..

أخرج الشريحة لي من جيبه.. كان قد استعدَّ لذلك دون أن أطلب منه.. أسعدني بذلك كثيراً وأراحني..

ودَّعني بعدها، وأخبرني بأنه سيتواصل معي، وسيعود غداً..

أغلقتُ الباب، وأنا أشعر بنشوة سعادة لم أعهدها من قبل..

تمددتُ على فراشي الجديد، والذي كان متواضعاً.. لكنه جميل..

ثم وضعتُ الشريحة في هاتفي، وتواصلتُ مع أختي فرح حالاً..

أخبرتُها بكل شيء.. وإلى أين وصلت..

كانت صدمة كبيرة بالنسبة لها!.. حاولت الاتصال بي..

لكنني قطعتُ محاولاتها كلّها..

كنتُ أفعل ذلك، والدموع تنحدر ببطء على خديّ..

لا أريدُ سماع صوتها كي لا أتألم.. أريد أن أكون قاسية قليلاً..

تأسفتُ لها؛ لأنني تسببتُ بإفساد رحلتهم..

وطلبتُ منها أن تتفهم موقفي غير المتوقع.. والذي كان سببه الرئيسي.. الهروب من عذاب والدتي وأخي، ومن مصير الزواج..

واصلتْ توسلاتها لي بالعودة.. ولكن من دون جدوى..

قمتُ بحظر رقمها بشكل مؤقت.. كي أنهي أية بوادر لتعاطفي..

آسفة يا فرح!.. أحبكِ ولكنه قراري..

مسألة وقت فقط.. وسوف تتأقلم عائلتي مع هذا الواقع الصعب..
أبشع أنواع الخطأ في حق النفس..
هو أن تمارس التجاوزات..
وتقنع نفسك أنها صحيحة بطريقة أو بأخرى!

تلك الليلة.. لم أذق طعم النوم جيداً..
كنتُ حزينة جداً.. اختفتْ فرحتي المؤقتة برؤية جمال..
كنتُ أتألم من الداخل.. ولم أصدق أنني أقضي هذا الليل وحيدة!
بعيدة عن أهلي.. وعن وطني!!

في اليوم التالي..
وبعد نوم متقطع قصير جداً وغير مريح..
تواصل معي جمال مُرحباً بي وبكل حماس.. كان حماساً متبادلاً..
وأخبرني بأنه سيأتي كي يصحبني إلى مكتب بيانكا..
وذلك عند الساعة التاسعة صباحاً..
أخبرني بأنه في الثلاجة الصغيرة التي تقبع في ركن غرفتي توجد العديد من العصائر المعلبة..

وفي الأدراج بجانبها.. توجد بعض المعجنات الجاهزة والمغلفة..
طلب مني تناول الإفطار والاستعداد.. وحصل ما طلب..
انتظرتهُ بعد ذلك حتى أتى..
لا أصدق أنني أصبحتُ معه في سيارة ولوحدنا!..
لم نعد نكتفي بالمحادثات الكتابية.. الآن نحن مع بعضنا سوياً..
كان يصف لي بعض الشوارع التي مررنا بها.. وإلى أي تؤدي..
و كنتُ منسجمة مع تغيرات ملامحه التي أحببتُ..
ثم أخذتنا الأحاديث الممتعة والضحكات..
حتى وصلنا إلى مكتب المحامية والناشطة الكندية..
دخلنا إلى المكتب.. رحبتْ بي ترحيباً حاراً..
جلسنا.. تحدثنا في أمور مختلفة.. ثمَّ طلبت مني طلباً غريباً!
لقد طلبت مني حسابي الشخصي على تويتر!!
استغربتُ طلبها، خصوصاً حين طلبت مني الرقم السري أيضاً!
سألتها مستغربة:

- لماذا؟
- يجب أن تقصّي معاناتكِ؛ كي تستفيد منها الفتيات الخليجيات الأخريات، وخصوصاً أبناء جلدتكِ من السعوديات.

- لماذا؟ وما دخل الفتيات الأخريات بعلاقتي العاطفية؟!
- عاطفية؟! لا، أقصد كي نلفت نظر الحكومة الكندية.. وبناءً على ذلك سوف يتعاطفون معكِ، ويوفرون لكِ ما تحتاجين.
- حسناً سأغرّد بنفسي..
- هل تُجيدين التغريد باللغة الإنجليزية؟
- لا أجيد اللغة، للأسف..
- إذاً اتركي لي هذه المهمة ولا تقلقي.. فقط بعض التغريدات.. وسأعيدُ إليكِ الحساب فور انتهائي مباشرة.

نظر إليّ جمال مبتسماً، ثم قال:

- لا تقلقي يا عزيزتي.. بيانكا تعرف ما تفعله جيداً.. أنا معكِ هنا.. لا مكان للقلق طالما جمال موجود.

ارتحتُ لمداخلته كثيراً.. وبادلتهُ الابتسامة..

الحقيقة لم أستطع أن أجادلها أكثر..

لأن اللغة كما أخبرتكم، كانت بالنسبة لي عائقاً كبيراً جداً..

كدتُ أن أطلب منها أن تغرد من خلال هاتفي نفسه..

لكني قررتُ أن أريح رأسي من طلباتها..

قدمتْ لي القهوة.. وبعض قطع الشوكولاتة..

وانشغلت بالحديث مع جمال.. بينما بدأت هي بصياغة التغريدات..

انتهت من ذلك خلال ربع ساعة..

ثم طلبت مني تصوير مقطع فيديو أطلبُ فيه اللجوء الفوري إلى كندا؛ كي ترسله إلى الجهات المختصة كما تقول..

لم أتقبَّل الفكرة.. لا لشيء.. ولكنني كنتُ مُحرجة أن أُصوِّر وأتحدث أمامها كما لو أنني مراسلة ميدانية..

فقط كان ذلك هو السبب..

وبعد مُضيِّ وقتٍ على حديثها المقنع.. وتأييد جمال لها..

وجدتُ نفسي أتقبل ذلك.. فالأهم موجود لديّ، وسواهُ لا يهمّ..

هو حبيبي جمال.. وفكرة الارتباط به، والاستقرار معه..

وبالفعل.. جهزتْ لي نصاً كي أتلوهُ..

كان بسيطاً وواضحاً.. لكنه غريبٌ بالنسبة لي!

أرادت مني في البداية، أن أدين معاملة أسرتي لي..

وتحكُّم أخي بحياتي، بعد وفاة والدي..

ثم أن أدين الأنظمة في بلدي.. وسلبها لحقوقنا كفتيات سعوديات!

كحقّ قيادة السيارة.. وحقّ التنقل خلال السفر بكل حرية..

وحق الزواج من دون الرجوع إلى وليّ الأمر..

وبعض الطلبات الأخرى..

بغض النظر عن صحة وأحقيّة هذه المطالبات أو لا..

لم يخطر ذلك على بالي أبداً.. ولم أشعر أنهُ يهمّني كثيراً..

فأنا هربتُ لسبب واحد وواضح..

أريدُ أن أتزوج الشاب الذي أحبه، والنجاة من واقعي السيء..

أخبرتُها بأنَّ هذه الإدانات لا أستسيغها، ولا تهمني..

أريد فقط حقّ اللجوء، ومن ثم الزواج بحبيبي..

فأخبرتني بوضوح:

- وكيف تريدينَ أن يتم قبول لجوئكِ؟

- بالتأكيد هناك شروط لذلك، وسأسعى لتوفيرها.

- لا يا سارة.. مثل هذه الطلبات تستغرق وقتاً طويلاً.. وتحتاجين إلى أسباب قوية وقاهرة في نظر الحكومة الكندية كي يتم قبول طلب لجوئكِ.. الحب ليس عذراً لطلب اللجوء.

بدأتْ تشرح لي أن معظم من حصلَ على اللجوء هم ممَّن قدَّموا أعذاراً مقنعة، تعكس أهمية وضرورة حاجتهم إلى اللجوء..

وطلبتْ مني أن أثقَ بها.. لكنني لم أكن مرتاحةً لكلماتها..
لذلك طلبتُ منها أن أتحدث قليلاً مع جمال على انفراد..
فلم تمانع أبداً..
نهضَ جمال من مكانه، ونهضتُ معه، وتوجهنا إلى زاوية في المكتب.. كنتُ قلقة جداً من طلبات بيانكا، وأخبرته عن قلقي هذا.. فلم يُبدِ أيَّ استغراب!
بل كان مؤيداً لفكرتها.. وأخبرني بأن هذه الفكرة ليست جديدة، بل تستخدمها معظم اللاجئات.. وهي بأن يقدموا أعذاراً ملفتة إنسانياً وحقوقياً تحرك عاطفة المسؤولين الكنديين لقبول الطلب!
ما جعلني أتقبل حديثه، هو حبه لي ووقوفه معي..
طلبَ مني أن أثق به، وأن أستجيب إلى كل ما تطلبه "بيانكا" لأنه يثق فيها كثيراً.. فهي القشة الوحيدة المنقذة لنا، كما أخبرني.. والتي يجب أن نتمسك بها؛ كي توصلنا إلى بر الأمان..
ونحقق حلمنا بالزواج..
هذا الحلم.. كلما شعرتُ بأنه قد اقترب من التحقيق..
تقدمتُ فوراً بخطواتي، وأنا مغمضة العينين..
ولا يهمني ما قد أواجه من مشاكل.. أو حتى عقبات..

تعني في جمال، هي ما كانت تجعلني أقوى..
وكم من فتاة لا تحتاج سوى إلى الثقة فقط.. كي تجد نفسها..
بدلاً من الضلال الكبير الذي يعتري بعضنا..
لقد وجدتُ هذه الثقة في هذا الشخص..
ولذلك.. سمحتُ له من دون تفكير، بأن يرسم أحلامي كلّها..
عدنا للجلوس، حيث تنتظرنا الناشطة الكندية..
أخبرتُها بأنني تحت أمرها، في كلّ ما تطلبه مني..
فرحتْ كثيراً، وبدا بأنَّ وجهها كاد يتشقق من فرط السعادة..
ونظرتْ إلى جمال متحدثة معه باللغة الإنجليزية وهي سعيدة..
أجلستني بطريقة بسيطة، تظهرني أنني أجلس جلسة عفوية..
وعندما سألتُها لماذا لا يكون التسجيل تسجيلاً رسمياً؟
بررتْ ذلك: بأن هذا لن يكون صادقاً أمام المسؤولين!!
لم يكن أمامي سوى تقبُّل وجهة نظرها..
فعلتُ ما طلبت مني، وأعطتني الهاتف كي أصور المقطع بنفسي
ثم أخبرتني بكل ما يجب أن أقوله.. وبالطريقة المناسبة..
بدأتُ التصوير بالهاتف..

جعلتني أكرر تسجيل المقطع حوالي خمس مرات..
إلى أن بدا لها ما سجلتهُ مقنعاً، وأُعجبت به..
انتهى هذا اللقاء الغريب.. ثم شكرتني كثيراً، ووعدتني خيراً..
وعدْتُ مع جمال إلى مقر سكني المتواضع، قبل العصر بقليل..
ودَّعني وأخبرني أن أتواصل معه، عندما أحتاج أي شيء..
كنتُ أريد أن أجلس معه في أي مكان..
أو أن يأخذني كي أتجول في شوارع تورونتو الجميلة..
لكنهُ كان مستعجلاً كما بدا لي.. لذلك لم أحرجهُ بطلبي.
مرَّ اليوم ببساطة.. وهذه المرة، وجدت أنني قد استطعت أن أخلد للنوم، بطريقة أقل قلقاً..

طلعَ الصباح.. إنها بداية يوم جديد..
استيقظتُ وأنا متلهفة للحياة التي تمنّيتها..
شعرتُ كما لو أنني أحتاج كوبَ قهوة..
فليس ثمة أجمل من نومة هادئة، وصباح رغيد لا ينتظرني مع إطلالته أوامر ولا تهديدات، ولا حتى واجبات..
كعادتي بعد الاستيقاظ، أول شيء أفعلهُ هو تصفح هاتفي..

أبحث مثلاً عن محادثة وردتني من جمال..

أو أرسل له الكلمات التي يحبها.. كي يستفتح بها يومه الجديد..

ثم أبحث عن أي جديد يكون حديثَ مواقع التواصل الاجتماعي..

وقعت عيناي على أيقونة تويتر..

دخلتُ إلى الموقع.. ولم أفهم ما يجري في حسابي الشخصي!

شيء غريب!

مئات ومئات الرسائل، والعدد في تزايد!!

لم تصدق عيناي ما وقعتا عليه.. لأول مرة يحدث ذلك معي!

عدَّلتُ من وضعيتي وجلستُ، بعد أن مسحتُ أثر النوم من عينيَّ كي أنظرَ بوضوح.. نبضات قلبي تتسارع، وكأنه جاثوم يخنقني..

تغريدات موجهة إلى حسابي باللغتين العربية والانجليزية والصدمة الحقيقية.. هي صوري!!

صورة لي وأنا أتناول القهوة في مكتب بيانكا، والذي كنت موجودة فيه بالأمس..

ومقطع الفيديو الذي صورتني فيه..

كي ترفقهُ مع طلب اللجوء.. كما أخبرتني هيَ بذلك!

سددتُ فمي بيدي اليسرى.. وواصلتُ التصفح باليد اليمنى..

حرارة لا أعلم مصدرها، تكتسح مناطق جسدي كلها..
أكاد أن يغمى عليّ.. أكاد أتقيأ..
ثمة الكثير من الشتائم.. الكثير من السخرية.. الكثير من الإدانة
والكثير الكثير من الإضافات والمتابعين من مختلف الجنسيات!!
ما صعقني هو الوسم* الذي تصدَّر الوسوم المتداولة في بلادي..
في المملكة العربية السعودية!
يحمل اسمي.. كان تحت عنوان:
#لجوء_الهاربة_سارة_إلى_كندا

لم أفهم شيئاً.. تمنيتُ لو أنه كابوسٌ أريدُ أن أصحو من سطوتهِ..
آخر ما كنتُ أتوقع مشاهدته مع بداية هذا الصباح..
هو انتشار صوري واسمي..
و تفاصيل مشكلتي العائلية الشخصية جداً.. وقد غدتْ حديث بلدي، والمنطقة ككل!!
بدأتُ أرتجف من الرعب!.. أكاد أفقد قدرتي على التنفس..

---

* الوسم أو علامة المربع (هاشتاق) وبالإنجليزي (Hashtag) على أي كلمة تبدأ بالإشارة #، وهي شكل من أشكال الوسم الذي اشتهر في مواقع التواصل الاجتماعي.. وخصوصا تويتر.

بسرعة قمتُ بالاتصال مع جمال.. فليس لديّ سواه..

أجابني بعد الاتصال الثالث..

كان نائماً.. حدثتهُ وأنا أصرخ وأبكي..

ولم يفهم مني أيَّ شيء.. حاولَ تهدئتي ولم ينجح..

طلبتُ منه الحضور إلى سكني فوراً..

وبينما كان قادماً إليّ.. قمتُ بحذف بعض التغريدات..

ثم رميتُ هاتفي جانباً بسبب ارتجاف يديّ.. لم أستطعْ المواصلة..

وصلَ جمال خلال نصف ساعة، ولم أتوقف وقتها عن البكاء..

طرق الباب، وفزعتُ من ذلك..

لا أعلم لماذا.. سمعتُ صوته يطلب مني أن افتح الباب..

ارتديتُ حجابي.. ثم اندفعتُ مسرعة، وفتحتُ له..

وجدَ حالتي مزرية.. أقلقهُ ارتباكي كثيراً..

دخلَ، ثم أغلق الباب.. كانت تلك المرة الأولى التي يُغلق فيها الباب علينا.. في مكان خاص..

حاول احتضاني، ولكني رفضتُ ذلك.. ولا أعلم لماذا..

هناك شعور لم أستسيغهُ جعلني أبعدُه عني.. وتفهَّم هو ذلك..

فطلب مني الجلوس، وأحضر لي قنينة ماء من الثلاجة..

ثم جلسَ بجانبي، وسألني عمّا حدث..

فأخبرته بكل شيء.. وفتحتُ له هاتفي كي يشاهد بعينيه..

لقد صُدِم.. ولكني رأيتُ على ملامحه شيئاً لم يُريحني!

صدمتهُ ليست دليل غضب.. بل كان هناك شيءٌ من التقبل!!

واصل تصفحهُ للموقع بدهشة واضحة، ثم قال لي:

- بيانكا المجنونة.. لقد صنعتْ منكِ نجمة بسرعة مذهلة!

توقفتُ عن ذرف الدموع، من دون أن أتعمد ذلك..

ثم نظرتُ إليه، وأنا أمسح وجهي من الخيبة التي تجرَّعتها قائلة:

- نجمة!

- لا داعي لكل هذا القلق يا حبيبتي.. لقد وجبَ لجوئكِ حتماً.. سوف يأتونَ إليك حبواً.. وسوف تجدين الرعاية المختلفة.

- ما الذي تقوله؟ من هم الذين سوف يأتون إليّ حبواً؟!

الكل يشتمني.. صوري منتشرة.. أنا في كارثة يا جمال..

سمعة عائلتي سوف تضرَّر بسببي.

نظرَ إلى الأعلى، وهو يبتسم ابتسامة أخافتني كثيراً ثم قال:

- ليتني كنتُ سعودياً.

أرعبني لأول مرة منذ أن عرفته، بسبب ردة فعله هذه!

ما علاقة ما يقولهُ الآن بما أمرُّ به؟!

كنتُ أنتظر منه أن ينقذني من مصيبتي.. لا أن يُعجب بها..

سألتهُ وأنا غاضبة تفسيرَ ردة فعله المستفزة، وطالبتهُ أن يضع حداً لما فعلتهُ معي صديقته الناشطة الكندية..

عندما لمسَ جدّيتي في الحديث، وغضبي المتصاعد..

وقفَ في مكانه، وطلب مني الهدوء، ووعدني خيراً..

فكَّر قليلاً، ثم قرر أن يتصل مع بيانكا..

وفعلاً اتصل بها، وطلب منها الحضور إلى غرفتي بأسرع وقت..

في البداية تذرّعتْ بالانشغال، ولكنه أخبرها بأنني غاضبة وقلقة فوافقتْ على الحضور..

وصلت بعد حوالي عشرينَ دقيقة..

فتح لها الباب، ودخلت وهي قلقة ومتسائلة:

- ما خبطكِ يا سارة؟

كدتُ أن أتهجم عليها، ولكنَّ جمال طلب مني التوقف والهدوء..

فصرختُ بصوتي قائلة:

- ما الذي فعلْتهِ بي؟.. ماذا يحدث في حسابي على تويتر؟!

نظرتْ إليّ، ثم إلى جمال، وقالت ساخرة:

- كنتُ أعتقد أن هناك شيئاً يستحق الحضور.

- ادخلي إلى الحساب وتابعي التعليقات.. لقد تصدرتْ قصتي الوسوم في بلدي.. الجميع مشحونون ضدّي.. أنا في خطر.

- ولكنكِ هنا في أمان.. وهذا هو المهم.

- المهم بالنسبة لكِ.. وليس لي.. لن أسمح بهذه المهزلة.. لقد حذفتُ بعض التغريدات.. وسأكمل حذف البقية الآن.

جنَّ جنون بيانكا من فعلي هذا، ولم تصدق حتى دخلت بنفسها إلى الحساب، وتأكدت من صحة ما قلتهُ..

ثارت كالوحش في وجهي، وعيناها يتطاير منهما شرر الغضب..

أبعدها جمال، متحدثاً معها باللغة الإنجليزية..

وكانت تتجادل معه.. ثم عادت للدخول مجدداً إلى حسابي وقامت بتغيير الرقم السري له، والاستيلاء عليه!

أخبرتْني بذلك، وحذّرتني من التصرف بحماقة مرة أخرى!!

رفضتُ ما قامت به، فهذا ليس من حقها أبداً..

نظرتُ إلى جمال، كان صامتاً ولم يتحرك إلا للتهدئة فقط..

غضبتُ كثيراً، وهددتُ بيانكا بأنني سأعود إلى بلادي فوراً..

ضحكتْ بيانكا بصوتٍ عالٍ، وهي تنظر إليّ.. ثم قالت لي:

- بلادكِ؟ أخبريني: ومن سوف يستقبلكِ بالأحضان هناك؟ رجال الأمن الذين حتماً قد شاهدوا مقاطع مطالباتكِ؟ أم عائلتكِ التي هربتِ منها.. وجلبتِ لها العار كما ترددون هناك بين أفراد مجتمعكم؟

لم أجد ردًّاً يناسب حجم الصدمة التي صدمتني بها..

تدخَّل جمال؛ كي يتدارك تمادي بيانكا في إيذائي قائلاً:

- توقفي يا بيانكا عن تصرفاتكِ هذه، وتحدثي بعقل وبأدب.

- أخبر حبيبتكَ أنها ليست هنا للنزهة.. ولتتحدث هي بعقل.

ثم غادرت بيانكا غاضبة، دون أن تغلق الباب..

ووجدتُ نفسي أبكي..

طلب مني جمال الهدوء.. وكان ينظر إليَّ بابتسامة..

حاولَ أن يجفف دموعي.. ولكني أبعدتُ يده، وطلبتُ منه ألَّا يلمسني.. فتحدث مبتسماً:

- لم أكنْ أعلم أنكِ أجمل عندما تذرفينَ الدموع؟

توقفتُ عن البكاء، ونظرتُ إليه.. ثم قلتُ:

- لماذا تتحكم بي صديقتك بهذه الطريقة؟ مَن يعطيها الحق؟
- لا أحد له الحق بأن يتحكم بكِ يا حبيبتي.. حتى أنا.. هي كانت غاضبة فقط.. لأن حذفكِ للتغريدات قد يؤخر حصولكِ على حق اللجوء، الذي تسعى هي لتأمينهِ لكِ.
- الكل أصبحوا يكرهونني في بلدي.. أشعر أن السوء ينتظرني.
- لا تقلقي أبداً.. ثقي بي.. لستِ السعودية الوحيدة هنا.. هناك أخريات يتحدثن في أمور أفظع بكثير.. ثقي بي.

لم أكن أملك سوى الخضوع للطافة جمال معي، ولاحتوائه لي..
فأنا من قبلتُ المجيء إلى هنا بكامل قواي وإرادتي..
يجب عليّ أن أتحلى بالصبر.. وليس بعد الصبر سوى الفرج..
استأذنَ جمال مني كي يغادر؛ لإنهاء بعض الأعمال التي تنتظره..
غادرني وتركني أتلذذ بنشوة كلماته المهدئة لي، رغم حزني..
يعكّر ذلك تحرُّشات وتهديدات بيانكا التي لم تفارق تفكيري!

مرَّ قرابة الشهر بشكل سريع..
لم تتواصل خلالهُ أختي فرح معي، سوى مرتين فقط..

أخبرتني أن والدتي ترفض التواصل معي إطلاقاً..

بسبب فضيحتي!

وأنها لن تغفر لي فعلتي.. ولن يهنأ لها بال حتى تُعيدني وتعاقبني..

يبدو أن قلة التواصل بيننا..

سببُها أنهم يريدون تعميق الإحساس بالحاجة لهم في داخلي..

أو ربما بسبب.. أنهم قد فقدوا الأمل في عودتي!

لم أكترث أبداً.. بل على العكس..

تصرُّفهم هذا معي.. يُحيي عندي شعورَ عدم الاكتراث..

هذا الشعور كنتُ لا أرفضهُ أبداً.. بل كنتُ أبحثُ عنه..

لأنه السبب الجوهري والدافع الوحيد القادر على جعلي أمضي قدماً فيما اتخذتهُ من قرار صعب.. كقراري بالهروب..

في يومٍ من الأيام.. قرابة الرابعة عصراً..

كنا نجلس أنا وجمال مع بيانكا، في مكتبها العصري جداً..

من أجل تسجيل بعض المقاطع الحقوقية الإضافية، بناءً على طلبها.. والتقاط بعض الصور.. كي تواصل نشرها على حسابي..

طرحتْ عليّ فكرة خلع الحجاب.. ولكنني رفضتُ رفضاً قاطعاً..

فلم تجادلني أبداً.. بل وجدُتها تردّ على الأمر بالضحكات فقط..
قدَّمتْ لي مصروفي المالي الشهري، كما وصفتهُ..
والذي لا أعلم من أين تأتي به؟.. ربما قد يكون من جيبها الخاص..
ثم طلبتْ مني أن أتجهَّز هذه الليلة..
لحضور حفل عشاء بسيط، يجمع بعض الفتيات وبعض الشباب!
حاولتُ الرفض؛ لأنني لا أحب مثل هذه التجمُّعات..
ولكنها أصرت، حيث قالت:

- ستلتقين بفئة من الشباب، مروا بمعظم العقبات التي مررتِ بها.. بل بأبشع منها بكثير.. سوف تسمعينَ العجب.
- لم أفهم.. أية عقبات!
- العقبات الأسرية التي مررتِ بها.. سيحضرن العشاء بعضهم فتيات قد هربنَ من جحيم عائلاتهنّ.. وبعضهم شباب مدافعون عن الحقوق في بلادكِ وخارجها.
- وما الذي سأفعله معهم؟
- هذا اللقاء مهم جداً.. سأكون بجانبكِ لا تقلقي.

لم يرتحْ قلبي لهذه المناسبة..

ولكنَّ جمال طمأنني، وأخبرني بأنه سوف يكون حاضراً معنا..

وسنقضي وقتاً ممتعاً.. تقبلتُ الموضوع حينها على مضض..

ولم أجدْ مخرجاً سوى الموافقة..

وبالفعل.. ذهبتُ برفقتهما تلك الليلة الممطرة..

كان تجمعاً في فيلا صغيرة جداً.. في الدور الأرضي..

بعيدة عن صخب المدينة بعض الشيء..

حضرَ حوالي ثمانيةَ عشرَ شخصاً.. معظمهنَّ فتيات..

كانت من بينهنّ ثلاثُ سعوديات..

لم أكن لأتعرف عليهنّ، لولا أنهن عرَّفنني على أنفسهن..

بسبب التغيير الذي كانوا عليه.. متحررات بشكل مُلفت..

لباسهنَّ الرائع، وقصَّات شعورهن الأنيقة..

الحق يقال بأنهنّ الأجمل بين الحضور.. جمالهنّ المثير..

يُجبرني على الاعتراف بذلك..

كنتُ أنا المحجَّبة الوحيدة.. وفتاة علمتُ أنها مصرية الجنسية..

اثنتان من الفتيات السعوديات الثلاثة..

كانتا فخورتان بي بشكل مبالغ فيه.. أحرجْنني جميعهنَ..
استقبلْنني بالأحضان وبشكلٍ راقٍ.. لأنني من بلادهنَّ نفسِها..
على الرغم من تردُّد إحداهنَّ في ذلك.. لاحظتُ نظراتها!
ثم قدّمْنني للموجودين الباقين.. والذين بادلوني الابتسامات..
جلستُ بعد ذلك إلى جانب بيانكا.. وجلسَ جمال بالقرب منّا..
قدموا لي وللآخرين شراب النبيذ.. ولم أكن أعلم أنه نبيذ..
ولكنني لم أكن مرتاحة له.. فطلبتُ عصير برتقال..
ولم يسخروا مني أبداً.. بل كانوا لطيفين جداً جميعهم..
ابتساماتهم.. أحاديثهم.. شعرتُ بأنهم يبحثون عن الحياة..
ولكن بطرق لا تتلاءم مع طبيعة بلدانهم وخصوصياتها..
بعد ذلك.. بدأوا بالحديث.. كل شخص يقوم بعرض قصته..
بعضهم من غادر هرباً؛ بسبب انعدام الأمن في بلاده..
وبعضهم من غادر بلاده؛ بسبب حاجته لتكوين أسرة تعيش بكرامة..
وبعضهم الآخر غادر بلاده؛ بسبب التمييز العرقي الذي يعانيه..
والعديد من القصص التي تستحق التأمل..
أذكر حديث الفتاة المصرية، التي قدمت نفسها متحدثة:

- أنا كوثر.. مصرية.. لديّ العديد من الآراء السياسية.. اضطررتُ للهجرة بعد سيطرة الجيش على الحكم في بلادي وموجودة اليوم هنا.. كي أدافع عن الحزب السياسي الذي أنتمي له.. حزب الإخوان المسلمين* .. حيثُ أسست صفحة على الفيس بوك "Facebook" وذلك للدفاع عن حقوقنا.. ولتعرية كل من يحاربنا ويشوه سمعتنا.. اسمي من ضمن المطلوبين المحرِّضين.. لذلك مستحيل أن أعود إلى بلادي.

ثم جلستْ، ونهضتْ إحدى الفتيات السعوديات..

وتحدثت بعد أن طلبت الهدوء من الحضور..

حديثها أدهشني، وجعلني أعيش حالة شعوريَّة لم أعشها من قبل!

حيث تحدثتْ بجرأة وبثقة:

- أنا فاطمة.. من السعودية.. مبعوثة من قبل دولتي للدراسة.. أنا طالبة متميزة.. لقد تعودتُ على الحياة هنا؛ فتغيرت طريقة تفكيري كثيراً.. حتى ما يخصُّ نظرتي إلى الدين.. علم أهلي أنني قد تركتُ الإسلام وأعلنتُ إلحادي.. بعد صراع طويل

---

* جماعة الإخوان المسلمين: هي جماعة لها حزب سياسي دولي يتاجر بالدين؛ من أجل الوصول إلى مراكز متقدمة في سدة الحكم.. مواقفه السيئة والدموية في العديد من الدول الخليجية والعربية وحتى الغربية.. دفعت الكثير من الدول إلى تصنيفهم كجماعة إرهابية.. وعليه تم حظر جميع نشاطاتهم السياسية والاقتصادية والفكرية في أماكن كثيرة))

وتساؤلات وجودية مررتُ بها مع نفسي.. ولم أجد لها إجابة.. أو حتى لم يسمح لي أحد أن أطرحها كأسئلة فقط.. لذلك اقتنعتُ بأن عودتي.. سوف تجعلني في خطر؛ بسبب تربُّص أشقائي بي للانتقام مني.. فاخترتُ البقاء هرباً من الموت.. اليوم أنا هنا.. كي أدعم حق الملحدين في إعلانهم لإلحادهم.. من خلال حسابي على تويتر.. وهذه شهرتي.

ثم قالت بعد أن فرغت من تقديم نفسها:

- أما الآن.. استأذنكم وبكل فخر.. كي أقدم لكم الفتاة الحرة.. والتي تنتمي إلى البلاد نفسها التي هربنا منها.. سارة.

موجة تصفيق متقطعة مفاجئة..

جعلتني أصاب بالحرج مرة أخرى..

نظرَ إليّ جمال، ثم أشار بعينيه وهو يواصل التصفيق..

طالباً مني التحدث.. لم أفهم ما الذي ينبغي عليّ فعله؟..

ثم همستْ لي بيانكا قائلة:

- الجميع بانتظارِكِ.. عرِّفي بنفسكِ، ثم أخبريهم لماذا هربتِ.

لا أحبُّ هذه المواقف، ولم أعتد عليها..

أن أتحدث أمام مجموعة من الوجوه.. تتلقفني أعينهم بالنظر..

بعضهم يجاملني مبتسماً.. والبعض الآخر يتأمل منتظراً..
بعد استماعي للمشاكل التي أجبرتهم على الهروب والهجرة..
شعرتُ بأنني كائن تافه، لا قيمة له!
سألتُ نفسي.. ما الذي سأقوله؟
كنتُ محرجة حقاً.. وجدتُ نفسي اجتهد بابتلاع بقايا لعابي الذي أوشكَ على الجفاف.. ثم تحدثتُ وعيناي لا تنظران إليهم:

- أنا سارة.. وصلتُ إلى كندا هرباً من بعض المشاكل الأسرية.

توقفتُ.. ووجدتُ نفسي عاجزة عن إكمال قصتي..
مستحيل أن اتجرأ وأقول لهم بأنني هربتُ من أجل الزواج بجمال..
قمة الإحراج لي كفتاة، أن أتحدث بهذه الطريقة الجرئية، وفي هكذا موضوع يخصني..
تدخَّل أحد الشباب واسمه كاظم.. كان عراقيَّ الجنسية قائلاً:

- قضيتكِ تشبه معظم القضايا المنتشرة الأسرية.. لا جديد.

لم أعرفْ بماذا أردُّ عليه..
فتدخلت "بيانكا" فوراً.. لإنقاذ الموقف، وتحدثت:

- سارة مختلفة عنكم.. هي هربتْ من أهلها في تركيا إلى هنا كما تعلمون.. ولكن لسبب عاطفي مُلهم.. هربت من مشكلة

إجبارها على الزواج من شخص يكبرها في السن كثيراً.. كي تتزوج هنا.. فقط من الشخص الذي تحب.. تاركة وراءها كل الاستقرار الاقتصادي التي كانت تعيشه لدى أسرتها.. ثم إنها لم تكن أنانية.. هي الآن تصنَّف كناشطة ملهمة للكثيرين كما تتابعون.

عادوا للتصفيق وسط نظراتي المرتبكة لهم، ولجمال..

ثم طلبت بيانكا مني الجلوس بجانبها مرة أخرى..

تدخَّل الشاب العراقي كاظم مرة أخرى، وسأل سؤالاً مشاكساً..

نظرَ إليّ مبتسماً، ثم قال:

- ومن هو سعيد الحظ، الذي تركتِ كل شيء من أجله ووصلتِ إلى كندا المعقدة معيشياً للعيش معه فيها؟

تحنَّطت ملامحي خجلاً، ولم تتحرك سوى عينيَّ نحوَ جمال..

الذي بقي صامتاً، ينظر إلى كاظم غاضباً..

قبل أن تتدخل بيانكا مجدداً قائلة:

- إنهُ جمال..

نظرات استغراب صوّبتْ إليَّ من الجميع.. وبعض الضحكات التي لم تكتمل، وقد تجنَّبَ أصحابها الإحراج أو الاساءة..

وكأنهم مستغربونَ من اختياري.. ينظرون إليّ وإلى جمال..

ولم أعلم لماذا!

اصطبغَ وجهي حينها باللون الأحمر تماماً..

والأهم من هذا كله.. نظرات جمال لـ (بيانكا)!

كانت نظرات غضب، لم أشاهدها من قبل على وجهه أبداً!!

تدخَّلت الفتاة السعودية فاطمة؛ كي تلطف الجو، وطلبت من الجميع أن يستعرضوا طريقة العمل التي تضمن لنا جميعاً ضمان وصول مطالباتنا إلى المنظمات الحقوقية الخارجية..

وتفاعلَ معها الحضور..

ماعدا جمال الذي تحولَ إلى شخص آخر..

كان يبدو وكأنه ينتظر انتهاء الوقت؛ كي يغادر.. فقط..

حاولتُ أن أسألهُ بنظراتي عمَّا يُضايقه؟..

ولكنه كان يتحاشى النظر إلى عينيّ..

بدؤوا بمناقشة العديد من الأمور التي تخصهم كفريق..

تحدثت فتاة فلسطينية، وعرضت عليهم فكرة إنشاء مجموعة دعم للمطالبات على تويتر..

بحيثُ يستفيد الجميع من توحيد إعادة التغريد لجميع تغريدات أعضاء المجموعة.. بحيثُ تلقى المطالبات صدىً واسعاً في الانتشار..

فلاقت الفكرة إعجابهم، وسط صمتي ودهشتي!

اقترح أحدهم من جنسية عربية لم أميز هويتها جيداً..

فكرة استخدام (الوسم) المتصدر في حينها..

بحيثُ تصلُ التغريدات إلى أكبر شريحة ممكنة من المقصودين..

هنا أشادَ شاب تونسي بالفكرة.. معلقاً وقائلاً:

- الوسوم.. إذا وظفنا استخدامها بشكل سليم؛ فإن ذلك نجاحاً.. وهناك الكثير من الحسابات المشهورة في تويتر.. تتكفل بإعادة تغريد للتغريدات التي تخص هكذا قضايا.. وبالتالي ستنتشر حتماً.

تدخلت الفتاة المصرية كوثر معجبة بالاقتراح.. حيثُ قالت:

- فعلاً.. فمعظم حالات التشدد والتسلط الأسري موجودة في المجتمعات القبلية.. كالمجتمعات الخليجية، وخصوصاً المجتمع السعودي مثلاً.. هو شعب تعدادهُ كبير جداً.. وعليه تجد معظم الوسوم أو كما تسمى بالهاشتاقات المتصدرة..

مصدرها "السعودية" بسبب التفاعل الكبير هناك.. وأما باقي الشعوب الخليجية.. فتجدهم يدخلون في هذه الوسوم للمشاهدة وللمشاركة.. فكلما استهدفنا هذه الأماكن النشطة.. كلما كان الوصول سهلاً.

اعترضت الفتاة السعودية، التي لم تتقبل رؤيتي في البداية.. تدعى: سُهى.. حيث لم يعجبها الحديث بهذه الطريقة المنتقاة كما تقول.. وجدتُها تعترض بتعجب قائلة:

- جميعنا هنا من أجل حقوق عامة للعرب كافة.. نؤمن أن التشدد الديني وحتى المجتمعي والقبلي، ظواهر مرضيَّة نسعى إلى محاربتها.. ولكنني أجد أنَّ محور حديثكم يدور حول السعودية فقط!.. ألا توجد هناك حقوق مهدورة للفتيات المصريات أو الأردنيات والعراقيات والفلسطينيات وجميع الفتيات في العالم العربي؟

أعجبتني بتدخلها الهادئ.. وتمنيتُ لو أستطيع التحدث مثلها بكل موضوعية وبلاغة.. لكنني للأسف.. لا أجيد ذلك..

وقعتْ شجاراتٌ واتهامات متبادلة ومتتالية..

قبلَ أن ترفع صوتها فتاة لبنانية بيضاء البشرة جداً.. تُدعى ماريا..

بدا لي وكأنها قد تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرها..
رفعتْ صوتها كي تثير انتباه الجميع.. ثم قالت:

- لن يُصلح حال العرب والمرأة العربية سوى انتهاء ممالك وإمارات المشيخة الرجعية التي تتحكم في المنطقة.. فكيف لبدويٍّ بدائيٍّ أن يستوعب أو يتقبل حقوق كحقوق المرأة؟ وكيف له أن يرضخ ويعطيها حقوقها بنفسه؟!

غضبت سُهى كثيراً، وأشارت بيدها للفتاة اللبنانية كي تصمت..
ثم قالت:

- قبل الدخول في مهاترات عقيمة لا فائدة منها.. أريد إجابة: هل نحن هنا للإساءة إلى حكامنا وشعوبنا؟ أم لدعم الحقوق؟ هل نحن هنا للتحدث بلغة عنصرية؟ أو لدعم الاختلاف؟

تدخَّل البعض لتهدئة الحوار، الذي تحولَ إلى صدامات صعبة..
ولكنَّ المرأة اللبنانية ماريا أصرت على موقفها، وتساءلت قائلة:

- إن كان يُغضبكِ حديثي.. هل لكِ أن تخبرينا لماذا أنتِ اليوم هنا في كندا بيننا؟ لماذا تبحثين عن حقوقكِ هنا؟

ضحكت سُهى ضحكة أثارتنا جميعاً، ثم قالت بثقة:

- أنا هنا من أجل الدراسة على نفقة بلادي العزيزة.. وسأعود إليها حال فراغي من الدراسة؛ لرد جميلها عليَ.. لكن أنتِ.. اخترتِ الهجرة النهائية، وطلب الجنسية والتنكر لبلادكِ.. والتجرد من أية صلة تربطكِ بها.. لا مجال للمقارنة بيننا يا ماريا.

أثار ذلك حفيظة ماريا.. فحاولت مقاطعة سُهى..

ولكنها واصلت حديثها بحزم.. قائلة:

- لن أخبركِ ما الفرق بين حياة الرفاهية والكرامة التي تعيشها شعوب دول الممالك وإمارات المشيخة كما تقولين، والإهانة والذل الذي تعيشهُ شعوب الجمهوريات.. لاأحب هذه اللغة.. ولا أريد تعميم الإساءة.. فأنا ظننتُ أننا هنا كوننا ناشطات مثقفات.. يجمعُنا حب الإنسانية ودعم الحقوق.. بعيداً عن الجنسيات والعرقيات وحتى الميول.. ولكنني للأسف وجدتُ نفسي مجبرة على الرد بأسلوب جافَ يناسب عقليتكِ.

ارتفعت الأصوات مرة أخرى.. واشتدَّت وتيرة تبادل الاتهامات حتى أصبح الجميع يتهمون بعضهم بعضاً..

فتدخلت بيانكا ضاحكة، تطلب منهم السكوت وسط نظراتهم المستطلعة.. وهي تقول:

- أنتم فعلاً عربٌ.. لا مكان لكم سوى دولة محايدة ككندا.. لا تستطيعون حتى الاتفاق على مطالباتكم الحقوقية البسيطة.. توقفوا عن الهراء.. ودعونا ندوّن الاقتراحات كي نطبّقها ثم دعونا نتناول العشاء، وننهي هذه الليلة.

تحدثت سهى وهي محبطة من هذا الواقع:

- لطالما تحدثنا سوياً عن حقوق المرأة السعودية، وطالبنا بالعديد من الحقوق.. أشهرها حق قيادتها للسيارة كغيرها.. والآن وبعد أن حضر القرار التاريخي قبل أسبوع.. لم يبارك أحدكم هذه الخطوة التصحيحية.. قرار قيادة المرأة للسيارة* ولم يثني أحدكم على بقية التغييرات الخاصة بحقوق المرأة.. تجاهلكم هذا يخبرني كما لو أنكم تبحثون عن تفريغ أحقادكم!

حضرت بعد ذلك التبريرات والاعتراضات..

فاعتذرتْ سُهى عن إكمال السهرة، معترضة على أسلوب الطرح..

ثم ودَّعتنا، وغادرت المكان..

تناولنا العشاء بعد ذلك، وسط أجواء مشحونة..

---

* يوم 26 سبتمبر 2017.. هو يوم تاريخي للسعوديات جميعاً.. حيث حضر قرار السماح بإصدار رخص قيادة السيارات للنساء في السعودية أخيراً بعد خلافات فكرية ودينية واجتماعية طويلة.. وهو قرار من ضمن الكثير من القرارات الجريئة الهادفة لإعطاء المرأة السعودية حقوقها، ورعايتها عن طريق القوانين الواضحة.

كنتُ أرغب بالجلوس إلى جانب جمال.. ولكني شعرتُ كما لو أنه يتحاشى الاقتراب مني.. فجلسَ بعيداً.. وبقيت أنا بجانب بيانكا..

بعد انتهائنا من وجبة العشاء.. اقتربتْ مني الفتاة فاطمة..

وصافحتني وابتسمت لي، ثم قالت:

- ما رأيك بهذه الليلة؟

- غريبة نوعاً ما.. ولكنها تستحق التأمل.

- فتاة مثقفة مثلكِ.. مناضلة مؤثرة على تويتر بالتأكيد هي إضافة مهمة ومفيدة لمجموعتنا يا سارة.

تلعثمتُ كعادتي، ولم أملك سوى إسكاتها بابتسامة كاذبة..

ثم قالت لي كلاماً غريباً نوعاً ما.. قالت:

- أعلمُ أنكِ ناضجة ومدركة.. ولكن اعتبري ما سأقوله لكِ تحذيراً أو مجرد نصيحة من فتاة.. هنا في كندا يمكنكِ فعل كل شيء.. سوى الحب.

نظرتُ إليها وأنا محرجة ومستغربة.. ثم سألتها:

- ما الذي تقصدينهُ؟

- لا تورِّطي نفسكِ بقصة حب غير متكافئة.. تريَّثي.

وقبل أن نكمل حديثنا..

قاطعنا جمال ليخبرني بحلول وقت المغادرة..

لاحظتُ حينها نظرات الاستياء المتبادلة بينهما..

وكأنَّ جمال لم يعجبه وقوف فاطمة معي إطلاقاً!

ودَّعنا بعضنا البعض.. وتمنيتُ حقاً لو أكملتُ حديثي مع فاطمة..

ما رأيتهُ هنا هذه الليلة.. لم أنسهُ حتى اليوم!

من الناشطات بمختلف جنسياتهن.. وخصوصاً السعوديات..

ومن الناشطين من الرجال.. بمختلف جنسياتهم..

جعلني ذلكَ أعلم فيما بعد..

بأن هناك قضية حساسة ومهمة..

قضية حقوق النساء.. هي قضية عادلة بالتأكيد..

ولكن معظم مَن يدافع عنها في الخارج هم محامون فاشلون!*

---

* (ظهر على السطح خبر صدم الجميع.. كان كالتالي:
صرح المتحدث الأمني لرئاسة أمن الدولة بأن الجهة المختصة رصدت نشاطاً منسقاً لمجموعة من الأشخاص قاموا من خلاله بعمل منظم للتجاوز على الثوابت الدينية والوطنية، والتواصل المشبوه مع جهات خارجية فيما يدعم أنشطتهم، وتجنيد أشخاص يعملون بمواقع حكومية حساسة وتقديم الدعم المالي للعناصر المعادية في الخارج بهدف النيل من أمن واستقرار المملكة وسلمها الاجتماعي والمساس باللحمة الوطنية التي أكدت المادة الثانية عشرة من النظام الأساسي للحكم على=

لن أعمّم.. فهناك من يسعى إلى أن يكون جاداً ومستقلاً..

ولكنَّ الأغلبية يختارون أسلوب الاستفزاز والتحدي والبحث عن الاستعراض.. ولا تجدْ لديهم أيَّ طرح يستحق الاحترام.. أو أيَّ تأثير يُذكر..

لذلك تجد معظمهم يفقدون ثقة الشعب في الداخل..

وحتى يفقدون ميزة النظر إليهم باحترام..

والخاسر هنَّ النساء، اللواتي يبحثنَ عن حقوقهن في الداخل!

كل هذا بسبب الأسلوب الصدامي..

والذي أوجدهُ البعض من دون وعي ولا إدراك لأساليب الانتقاد المنطقية، ولطرق المطالبة أو حتى طرح الأفكار..

انتهت الليلة..

ركبنا السيارة.. وبدأ فصل جديد من النقاش الحاد!

جمال يصرخ على بيانكا وهو غاضب..

=وجوب تعزيزها وحمايتها من الفتنة والانقسام.

وقد تمكنت بفضل الله الجهة المختصة من القبض على عناصر تلك المجموعة، والبالغ عددهم سبعة أشخاص، فيما لا يزال العمل جار على تحديد كل من له صلة بأنشطتهم واتخاذ كافة الإجراءات النظامية بحقه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

المصدر: واس.. صدر في 18 مايو 2018.

معترضاً على كشف علاقته معي أمام الحضور..

فلاحظ نظراتي المستغربة تجاهه.. وبدأ يعلل ذلك بخوفه عليّ..

لأننا كما يقول.. لم نُعلن عن قصة حبنا أمام الملأ..

بالإضافة إلى أنني فتاة من أسرة محافظة، كما يبرر بأقواله..

ويخشى عليّ من أحاديث العامة!

كانت بيانكا باردة الأعصاب.. لم يهمّها غضب جمال..

لم تتحدث؛ تاركة له المجال كي ينهي تبريراته المتتابعة والمتوترة..

ثم قدمتْ له الاعتذار عن تصرفها؛ كي تُنهي غضبه..

معللة تصرُّفها بأنه إنقاذ لموقفي المحرج أمام الموجودين..

ولكنَّ جمال بقيَ غاضباً، ولم تعجبه تبريراتُها..

تبادلا الجدال، حتى طلب النزول عند إحدى محطات البترول..

ثم ودَّعني دون أن يودِّع بيانكا..

كنتُ أريد أن أسألهُ عن سبب هذا الغضب كلِّهِ الذي عصفَ به..

لأني لم أستوعب مبرراته.. لكنه لم يترك لي أية فرصة لذلك..

طلبتُ منه فقط أن يكون بخير..

أوصلتني بيانكا ثم غادرت..

لقد عدتُ إلى مسكني بعد ليلة دسمة جداً.. لم تستسغْ نفسي ما رأتهُ وما سمعتهُ.. لغة جديدة لم أتعود عليها.. ولم تتقبلها شخصيتي البسيطة..

ظلَّ حديث الفتاة السعودية سُهى عالقاً في مخيلتي..

وشعرتُ في داخلي بأنَّ هناك شيئاً حزيناً يُخبرني..

بأنني أذنبتُ في حق بلدي من دون قصد؛ بسبب ضعف شخصيتي..

ولكنيّ كنتُ عاجزة عن التصرف.. لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟

أكثر الضيقات رعباً..

هي تلك التي إذا فقدت القدرة على علاجها..

ثم تجد نفسك بأنك قد تكيفت معها!!

حاولتُ أن أبعد تفكيري عن هذا النوع من معاتبة الضمير..

لذلك اخترتُ أن أتواصل مع جمال؛ كي أطمئنَّ عليه دون مجادلته ثم خلدتُ إلى النوم.. استعداداً لبداية يوم جديد، لا أعرف ما ينتظرني فيه..

الحياة بعد اللجوء.. ليست كالحياة قبله!

بعد مرور قرابة شهرين على وجودي في كندا..

بدأتُ أتقبل وضعي الجديد.. أو أتصنَّع قبولهُ..

اتصل بي جمال ذات صباح.. والفرحة تتطاير من صوته..

كان يردد بفرحة هستيرية:

- لقد فعلتها بيانكا كعادتها.. لقد فعلتها بيانكا كعادتها.

أخبرني بأنه قد تمَّ قبول لجوئي فوراً!..

شعرتُ حينها بأن الأمر جديٌّ فعلاً.. الآن تأكَّد كل شيء..

لا رجوعَ إلى الوراء.. لا رجوعَ إلى الوطن!

وهل الوطن ماضٍ ونحن الحاضر.. ما هو المستقبل إذاً؟

أسئلة لا أستوعبها، ولا أعرف إجاباتها..

لم أفرح باللجوء.. ما أفرحني هو فرحة جمال بذلك..

فأنا أثق به.. أو أنني لا أملك إلا أن أثق به..

بعد انتهاء مكالمة جمال معي..

تلقيتُ اتصالاً من الناشطة بيانكا..

كانتْ سعيدة جداً وهي تتفاخر بإنجاز ملف قبول لجوئي المعقد بهذه السرعة.. الحقيقة لا يوجد لديها وقتٌ كي تضيّعه..

أخبرتني فوراً بوجوب دخولي إلى معهد للغة الإنجليزية!
لأن لغتي العربية لا تكفي للتواصل مع الآخرين..
أخبرتُها بأن إكمال دراستي هو الأهم من هذا..
فمنذ توقفي عن الدراسة، لم تسنح لي الفرصة لمواصلتها..
فأخبرتني بأن هذا سوف يكون في المرحلة التالية..
صمتُّ قليلاً.. ثم أخبرتُها بأنني حالياً لا أريد شيئاً..
يكفي أنَّ زوج المستقبل يتحدث لغتي نفسها ويفهمني وأفهمه..
وهذا أقصى ما أبحث عنه في هذه الفترة الصعبة عليّ..
ولكنها رفضتْ، وبدأت تتحدث بطريقة رسمية وكأنني موظفة لديها!
شعرتُ كما لو أنني كنز مهم تسعى للحفاظ عليه بتطويره!!
وكعادتي، وعادة شخصيتي المهزوزة..
اتصلتُ فوراً بجمال.. وأخبرته عما طلبته مني "بيانكا"..
وكالعادة كان موافقاً على هذه الخطوة، ومؤيداً لصديقته الكندية..
خصوصاً أنه أخبرني بأن هذه الخطوة هي مجانية..
ليس ذلك وحسب.. بل إنَّ الحكومة الكندية سوف تخصص لي مبلغاً معقولاً ومهماً من المال بصفتي لاجئة..

امتيازاتٌ تقدمها حكومة هذا البلد.. صحيح أنها ليست كبيرة..
ولكنها مغرية لمن يحتاجها.. وكنتُ أحتاجها فعلاً..
أهم ما تضمَّنتهُ هذه الامتيازات.. هو توفيرهم للتأمين الطبي..
بقية أوراقي الرسمية أكملتها بيانكا، بواسطة علاقاتها النافذة..
طلبتُ من بيانكا أن تترك لي فرصة أسبوع كي أرتب أفكاري..
ولكنها رفضتْ.. وأعطتني يومين فقط..
إصرارُها وطريقتها العملية والجادة.. أمور أصبحت تستفزُّني..

وافقتُ على مضض..
ومرَّ اليومان وأتت هي بنفسها صباحاً؛ كي تصحبني إلى المعهد..
كل شيء في هذه البلد يحدث معي بسرعة..
وصلنا.. معهد متواضع، يوجد لدينا في الرياض معاهد أفضل منهُ بكثير.. من ناحية الديكورات طبعاً.. ولكنني لم أدخل أحدها يوماً..
دخلنا.. كان المكان بارداً جداً.. ممر ضيق.. أرضية إسمنتية..
لا أعلم إن كان تصميماً عصرياً.. أو توفيراً اقتصادياً مقصوداً..
مشينا قليلاً حتى وصلنا إلى صالة متوسطة المساحة..

استقبلتنا من وراء مكتب الاستقبال..

امرأة بيضاء.. شعرها قصير وناعم.. عمرها في الأربعينات..

كان حَضنها لبيانكا حضناً حاراً..

من يشاهدهما.. يشعر كما لو أنهما لم يشاهدا بعضهما منذ مدة..

ثم التفت نحوي، وقدمتني بيانكا إليها باللغة العربية المكسرة:

- هذه سارة.. لاجئة سعودية جديدة.

شعرتُ من أسلوبها عندما قالتها، كما لو أنها سعيدة بلجوئي!

وخصوصاً أنني أنتمي إلى بلد كالسعودية!!

وكذلك المرأة.. استقبلتْ حديث بيانكا بابتسامة عريضة..

ثم قالت لي بلغة عربية مكسرة أيضاً، بعد أن مدت يدها لتصافحني:

- أهلا وسهلاً سارة.. أنا ثريا رضا.. إيرانية مهاجرة.. أعلم أنكم أيها السعوديون لا تحبون الإيرانيين.. ولكننا هنا متساوون.. جميعنا لاجئون.. (قالتها بسخرية).

الحقيقة لا أجيدُ المناورات في الأحاديث..

لذلك لم أردّ عليها سوى بابتسامة..

ثم واصلتا حديثهما باللغة العربية؛ كي أفهم وأشاركهما الحديث..

وعندما كانتا تتحدثان بتفاصيل معينة.. كان حديثهما بالإنجليزية..
شعرتُ بأنهما تتعمدان إخفاء بعض الأمور عني..
ولكن ما بيد الحيلة..
أعطتها استمارة كي توثّق فيها معلوماتي..
فأخرجت من حقيبتها ورقة مشابهة كانت قد ملأتها بمعلوماتي كلّها.. يبدو أن بيانكا تعلم جيداً كل المتطلبات..
وكانت مجهزة لكل شيء..
ضحكت الإيرانية ثريا، ثم قالت:
- لم تتغيري أيتها الناشطة النشيطة.. دائماً جاهزة..
- أنا بيانكا.. ناشطة.. ولستُ مجرد ثرثارة..
انتهت الإجراءات بسرعة.. كانت غير مفهومة بالنسبة لي..
ثم أخبرتني بيانكا بأنها سوف تغادر الآن.. وستعود إليّ قرابة الساعة الحادية عشرة.. وعندما شعرتْ بتوتري وخوفي..
طمأنتني بأن ثريا هي صديقة عزيزة بالنسبة لها..
وإن احتجتُ أي شيء منها؛ فإنها لن تتأخر على الإطلاق في المساعدة..
ثم غادرتْ بكل بساطة!

ابتسمت لي ثريا، ثم طلبت مني أن أتبعها..

وبالفعل كنت أمشي خلفها عبرَ ممر كئيب..

اعتلت جدرانهُ بعض الصور والرسومات التعليمية للغة..

حتى وصلنا إلى الباب الثالث تقريباً.. كان على يميني..

طرقتهُ ثم فتحته.. وطلبتْ مني الدخول..

دخلتُ على استحياء.. وجدتُ قرابة خمسةَ عشرَ شخصاً تجمَّعوا في هذه الغرفة متوسطة الحجم من أجل دراسة اللغة..

جميعهم ينظرون إليّ.. بعضهم يبتسم، وبعضهم صامت..

والبعض الآخر غير مهتميّن.. كان المعلم يقف على يسار الباب..

هندي الجنسية كما بدا لي..

قدَّمتني ثريا إلى الصف باللغة الانجليزية..

ولم أفهم من حديثها سوى ذكرها لاسمي..

ثم خرجتْ وأغلقتْ الباب خلفها..

رحَّب بي المعلم، ثم أشار لي بيده بأن أتفضّل..

وفهمتُ ما يقصده طبعاً..

كان الطلبة يجلسون بشكل متوازي في محاذاة جدران الصف..

يميناً ويساراً ومن الأمام السبورة..

ثلاث كراسٍ هي التي كانت فارغة فقط، وفي أماكن مختلفة..
على الرغم من توسط حجم الصف..
إلا أنني احترتُ من أين أمشي؟ وكيف أصل؟..
موقف محرج جداً قد يصيب كل من يدخل مكاناً جديداً عليه..
توقفت فتاة جميلة.. حنطية اللون، ولها شعر مجعد وجميل..
وطلبت مني الجلوس بجانبها..
الحقيقة لقد أنقذتني من احمرار الوجه الذي حلَّ بي بسبب
نظرات الموجودين المريبة..
رحبتْ بي.. وبدا لي أنَّ لهجتها العربية ليست غريبة..
ثم بدأ المعلم بمواصلة الدرس..
كانت أتفه ساعة ونصف وأكثرها مللاً لي منذ وصولي إلى كندا..
ما أحرجني، نظرات بعض الطلبة لي..
وخصوصاً الفتاة التي دعتني للجلوس بجانبها..
سببتْ لي بعض الارتباك والتوتر..
ولم أصدق أنَّ الدرس قد انتهى، وحضر وقت الاستراحة..
التفتت إليّ وهي منبهرة.. ثم قالت لي:

- سارة.. لم أتوقع أن أشاهدكِ هنا!

صمتُّ لبرهة وكأنني غبية.. ثم تداركتْ ذلك قائلة:

- عفواً لم أعرفكِ.. لهجتكِ مألوفة من أين أنتِ؟!
- أنا هاجر.. كويتية..
- أهلاً بالأشقاء من الكويت.. ولكن أشعر كما لو أنكِ تعرفينني؟
- ومن لا يعرف سارة.. الهاربة السعودية والمناضلة المؤثرة في سماء مواقع التواصل الاجتماعي.. أنتِ ملهمة للكثيرات.

عاد الصمت إليّ.. شعرتُ بتنمُّل قد تسربَ إلى خديّ ولم يتوقف.. صدمتني فعلاً.. مناضلة؟! ومؤثرة؟!!

ثم واصلتْ حديثها بشغف:

- كنتُ أتساءل برفقة بعض الفتيات في كندا.. عن كيفية تمكننا من اللقاء بكِ.. لدينا الكثير لنقوله لكِ يا سارة.. معظمنا يستقي معلوماته لمعرفة حقوقنا من خلال حسابكِ في تويتر.. والذي أصبح ملاذاً لي وللكثير من المظلومات.

رددتُ عليها بارتباك واضح..

كما لو أنني كنتُ أحاول تفنيد ما نسبتهُ لي من أوصاف..

قلت لها:

- أنا سارة صحيح.. ولكن ليس كما تقولين..

- لم أفهمكِ؟!

- أقصد أنني لستُ مناضلة ولا حتى..

- لا تكملي.. كنتُ أتوقعُ أنكِ شخصية طيبة ومتواضعة.. صحيح أريد أن أسألكِ.. لماذا أنتِ هنا؟

الحقيقة لم تعطني فرصة للإجابة بسبب حماسها..

شعرتُ كما لو أنها قد التقت بنجمة غناء شهيرة..

أجبتُها كي تهدأ، وتتوقف عن الأسئلة:

- ما الذي تفعله فتاة في معهد لغة إنجليزية؟ أتعلم اللغة طبعاً.

- سارة تريد أن تتعلم اللغة؟!

- وما الخطأ في ذلك؟

- الخطأ اختيارك لهذا المستوى.. أنت لغتكِ ممتازة جداً!

استغربتُ من حديثها.. شعرتُ كما لو أنها تقصد فتاة أخرى.. تتحدث معي كما لو أنني لستُ أنا.. هناك شيءٌ لا أفهمهُ!

أية لغة ممتازة التي تقصدها هذه الفتاة؟.. هل تقصد العربية؟!

سألتها باستغرابٍ؛ كي أفهم ما تحدثني عنه فقلتُ:

- عفواً أنا لا أجيدُ اللغة الإنجليزية أبداً.. أية لغة تقصدين؟

نظرت إليّ مندهشة.. ثم سألتني وهي في قمة استغرابها:

- وكيف تغرّدين في حسابكِ على تويتر باللغة الإنجليزية؟!

صدمة جعلتني أضع يدي على فمي.. سبقتْها شهقة هربت منه قبل أن أغلقهُ بإحكام.. فاستغربت الفتاة من ردة فعلي المفاجئة..

لقد نسيتُ تماماً موضوع حسابي..

وبأنَّ بيانكا قد استولت عليه، بعد تغييرها للرقم السري!

يبدو أن هذه الناشطة الكندية الحقيرة لم تجعلني حديث مواطني بلادي فحسب.. بل حديث دول الجوار والمهجر بأكملها!!

حاولتُ أن أجيبها إجابة تبعد عنّي الشبهات، ولكن قاطعنا أحدهم..

شاب نحيل الجسد.. طويل بعض الشيء.. وسيم..

شعره ناعم ولونه مائل إلى الاحمرار.. ينسدل على عينه اليمنى..

ناعم الملامح.. يقف ممسكاً بكوب قهوة.. قدمهُ لي مبتسماً ثم قال:

- أهلاً سارة.. أنا فادي.. سعدتُ كثيراً برؤيتكِ هنا..

قلتُ في نفسي.. من هذا أيضاً؟ .. ما الذي يحدث لي أنا؟

اضطررتُ إلى قبول قهوته.. وابتسمتُ له ورحبتُ بترحيبه لي..

ثم قال مفتخراً:

- أنا من متابعيكِ على حسابكِ في تويتر.. نصائحكِ أفادتني كثيراً لصدّ كل الفئات التي تنبذ شخصيتي.. ولكن لي رجاء: هل لكِ أن تستجيبي له يا سارة؟!

- تفضل أخي فادي.

- تغريداتكِ باللغة الإنجليزية تفوق عدد تغريداتكِ باللغة العربية أعلم أنكِ توجّهين مطالباتك لمنظمات حقوقية أجنبية.. ولكن أغلب المهتمين بحسابكِ هم من العرب.. ونسبة كبيرة منهم لا يجيدون اللغة الانجليزية.. أتمنى أن تهتمي لطلبي.

ما الذي يقوله هذا الأحمق؟!

الحقيقة لم أجد شيئاً مناسباً أقوله له..

شيئاً يعكس حجم اهتمامهم ونظرتهم إليّ.. سوى الابتسامة الكاذبة..

أكادُ أجنُّ من نقاشاتهم معي..

ولم يسعفني لتهدئة هذا الجنون سوى استئناف الدرس من جديد..

تأكدتُ حينها.. بأنَّ الصداع الذي يأتي من ثرثرة المعلم الهندي..
أهون ألف مرة.. من الصداع الذي يأتي من أحاديث هاجر وفادي

مرَّ الوقت بطيئاً، حتى انتهى الدرس..

ثم غادرتُ على عجل؛ كيلا يستوقفني شخصٌ آخر منعاً للإحراج..
ومن حسن حظي وجدتُ بيانكا قد وصلت للتو أمام مدخل المعهد..

ابتسمتْ عند مشاهدتي.. فطلبتُ منها أن نغادر فوراً..

استغربتْ مني ولم تمانع..

ركبنا السيارة، وسألتني وهي مستغربة عن العجلة التي كنتُ عليها:

- ما خطبكِ؟ كيف كان أول يوم في المعهد بالنسبة لكِ؟
- سيء جداً.. مستحيل أن أكمل معهم..
- نعم؟ ما هذا الهراء يا سارة؟!
- بيانكا.. ما الذي تنشرينه في حسابي الذي يحمل اسمي؟
- وما دخل هذا في عدم رغبتكِ بالاستمرار في المعهد؟
- هناك من تعرف عليّ من بعض الطلبة العرب، والذي حيرني هو تحدثهم معي عن أشياء تخصني في حسابي لم أفهمها!!

صمتتْ.. ثم انطلقت بسيارتها، وهي تواصل صمتها..
وأنا أنظر إليها منتظرة أية إجابة تزيل القلق الذي لازمني..
ثم نظرتْ إليّ، وانفجرت ضاحكة وهي تقول:
- عظيييييم.. لقد أصبحتِ يا سارة معروفة حتى في كندا..
والأهم.. أنكِ أصبحتِ شخصية معروفة بين الطلبة العرب.

هذه الملعونة لن تتركني؛ حتى تقضي على سمعتي تماماً..
كنتُ أعتقد أنَّ خبر هروبي لن يعلم به سوى عائلتي فقط..
ولكنني أجد أنَّ الجميع أصبح يعرفه!
هي لا تكترث لوضعي، ولا لصعوبة ما أمرُّ به..
في كل مرة أجدها تبحث فقط عن النجاح في عملها..
ولا يهمها لو كان ذلك على أنقاض الآخرين!
حدَّثتها بلهجة أكثر حدة، وقلتُ لها:
- لن أعود.. أنتِ لا تستوعبين خطورة ما تفعلينه معي.. كيف لي أن أجيب على أسئلة لا أفهمها.. من قبل أناس لا أعرفهم أبداً؟!

- سارة.. الأمر ليس اختيارياً.. هو مطلوبٌ منك، وعليكِ تنفيذه.

- ما الذي تقصدينه؟

- لا تزعجيني.. اللجوء هنا لأمثالكِ؛ يتطلب العمل بجدية.. واللغة هنا أساسية للتخاطب مع زملائكِ النشطاء الأجانب.

شعرتُ أنَّ لساني قد فقدَ قدرته على التحرك..

حديثها معي بمثل هذه الأمور.. وبكل هذه الجدية والحدة..

يجعلني أشعر بالخوف وبالرهبة.. أكثر من أية فترة مضت..

شعرتُ كما لو أنني مقيدة.. خصوصاً عندما أكملت حديثها وقالت:

- رجوعكِ خطوة إلى الخلف.. يعني إعادتكِ إلى بلادكِ.. وعودتكِ إليها.. يعني عودتكِ إلى أهلكِ.. أعتقد أن الجحيم حينها سوف يكون أكثر رحمة، من استقبال عائلتكِ لكِ.. كوني فتاة طبيعية ومطيعة.. وسوف تنعمين بحياتكِ بيننا.. وتصرفي مع السائلين بذكاء وبتمويه.. وستكون كل الأمور على ما يرام.

أرعبتني وأقلقتني هذه اللهجة المباشرة لبيانكا..

حتى ملامحها لم أعهدها بهذا الشكل.. كانت مرعبة جداً..

فوجدتُ نفسي أصمت.. وأعود إلى الوراء بظهري..

ولم أتفوَّه بأية كلمة، وأخيراً أوصلتني إلى سكني..

عفتُ الطعام حينها، وحتى شرب الماء..

فتحتُ هاتفي، وقمتُ بإنشاء حساب جديد على تويتر..

ودخلتُ أبحثُ عن حسابي القديم، الذي سيطرت عليه بيانكا..

وليتني لم أشاهده.. تغريدات مستمرة وغير مفهومة..

ودعم لتغريدات أخرى وحقوق ومطالبات جريئة ومثيرة..

أصبتُ بضيق جعلَ أنفاسي تخرج مني بصعوبة..

شربتُ الكثير من الماء البارد.. ولا أعلم لماذا!..

حاولتُ الاتصال بجمال.. ولكنني لم أنجح في الوصول إليه..

عندما كنتُ أتواصل معه من بلادي.. كنتُ أجده أكثر من الآن..

لا أعلم ما الذي يشغله عني دائماً؟..

بقيتُ جالسة لوحدي، محتضنة لركبتيّ.. سارحة الذهن..

مجهولة المستقبل.. فانتظرتُ انتهاء اليوم حتى موعد النوم..

منتظرة يوم جديد.. لا أعلم ما الذي يخبأه لي هذه المرة!

مرَّت الأيام تلوَ الأيام..

لم أتمكن فيها من الاستمتاع بأي مرفق من مرافق تورونتو..

كنتُ أشعر كما لو أنني في مهمة!

مللتُ من بقائي في الغرفة لفترات طويلة.. مللتُ الروتين..

واصلتُ الذهاب إلى المعهد برفقة بيانكا..

و نمتْ علاقتي مع الفتاة الكويتية هاجر نحو الأفضل..

وحتى الشاب فادي.. كان ودوداً معي، كما عرفته أول مرة...

و مثلُهما بعضُ طلبة المعهد الذين كانوا معي..

سألتُ هاجر مرة من المرات، وقلتُ لها:

- هل هؤلاء الطلبة جميعُهم هاربون من عائلتهم كحالتي؟
- بالتأكيد لا.. بعضهم مهاجر برفقة أهله.. وبعضهم هنا من أجل الدراسة.. والبعض الآخر أتى بحثاً عن فرص وظيفية، أفضل من التي في بلاده.
- وأنتِ يا هاجر؟
- أنا هنا من أجل دراسة اللغة.. أريد أن أنضمَّ إلى جامعة معينة ولكن بسبب ضغوطات أسرية.. أفكر جدياً في الاستقرار هنا.

- ضغوطات؟ مثل ماذا؟
- والدي يجبرني على ارتداء الحجاب، ولا أحب ذلك؟
- تمزحين معي، أليس كذلك؟
- لا.. فأنا لا أتقبل القيود والإجبار على أفعال لا أقتنع بها.
- بغض النظر.. لكنهُ ليس سبباً مقنعاً للهجرة..
- أنتِ تقولين ذلك يا سارة؟ ولماذا تدعمين حملة إسقاط العباءة في السعودية على تويتر.. ولا تعتبرينها تافهة؟!

تويتر تويتر تويتر.. اللعنة على مواقع التواصل الاجتماعي كلها..

كيف لي أن اتعامل معها، وأنا قناعاتي تناقض ما يُكتب في حسابي؟

بدأتُ أتململ من وجود هاجر بالقرب من مكاني..

بسبب تعاملها معي كشخصية مناضلة كما تردد دائماً..

على الرغم من طيبتها وأدبها معي..

فبعيداً عن حياتها الشخصية، وحريتها فيما تؤمن..

الحقيقة ما تطلبه قمة في التفاهة.. مقارنة بما أبحث عنه أنا..

أنا هربتُ من الجحيم الذي كنتُ على وشك الوقوع فيه بسبب تسلط أخي، وضعف والدتي، وجهلي بالقوانين..

بينما هي تبحث عن الهرب من أجل خلاف حول قطعة قماش!
تحدثنا كثيراً، وفي أيام مختلفة..

كنتُ دائماً ما أتهرب من نقاشاتها في الحقوق..

فأنا أبحثُ عما يجعلني أروّح عن نفسي..

أريدُ الحديث والتعرف على فتيات يناسبنَ مرحلتي العمرية..

تشبه اهتماماتهنّ اهتماماتي..

ولا أرغب في الحديث عن الأمور المعقدة.. والمتشعبة جداً..

والتي تحتاج إلى إدراك وتعمُّق..

عندما تبتسمُ لك الدنيا فجأة..

لا تأمنها مباشرة!

في أحدِ الأيام..

كان المطر يتساقط.. بينما كنتُ أجلس وحدي وأنا في قمة الملل..

اتصل بي جمال ليلاً، قبل أن أخلد إلى النوم..

أصبح يتواصل معي قليلاً، وفي أوقات متقطعة..

ويبرر ذلك دائماً بالعمل، وبالتنقل بين المقاطعات..

وفي كل مرة يلاحظ حزني.. كان يطلب مني الدعم والصبر..

عندما اتصل بي.. لاحظ تغيراً في صوتي، وفي انعدام تفاعلي مع حديثه.. فسألني:

- سارة حبيبتي.. هل هناك شيء؟ هل أنتِ على ما يرام؟
- وماذا سوف يتغيَّر معك بعد إجابتي؟
- الكثير.. أعلم أنني مقصر معكِ.. ولكن الحياة هنا تتطلب العمل ولا شيء غير العمل؛ من أجل أن نعيش.. أخبريني؟
- لستُ على ما يرام يا جمال، لا أشعر بالاستقرار ولا بالأمان.

حاول تهدئتي بكلماته المعتادة..

ولم يحرك في نفسي شيئاً، كما كان يفعل من قبل..

حتى عرض عليّ عرضاً انتشلني من الضيق الذي أعانيه..

حيثُ قال لي بعد أن شعر أنني مستاءة جداً:

- ما رأيك أن آخذك بنفسي غداً بعد فراغكِ من المعهد؟

- وهل تعتقد بأني سوف أرفضُ عرضاً كهذا؟

- تأنقي جيداً.. ستكونُ شفتاكِ على موعد مع كعكة الأناناس التي سبقَ وأن أخبرتكِ عنها، عندما كنتِ في بلادكِ.

- دائماً حبيبتكِ متأنقة.. هل عندك شك؟

- لا لا.. لا أشك في تأنق وجمال الملائكة.

شعرتُ ببوادر نشوة سعادة قد تسللت إلى داخلي، كنت قد افتقدتها..

نعم.. هذا هو جمال الذي أعرفه.. وهذه الحياة التي أرغبها..

فقط.. أن يحتويني جمال بجماله الداخلي، كي أعيش معه بهدوء..

نهضتُ من فراشي مسرعة، فور انتهاء المكالمة..

بدأتُ باختيار أفضل ما يمكنني لبسهُ من ملابسي المتوفرة..

جهزتها تماماً، ورششتها بالعطر، ووضعتها جانباً..

ثم أخذتُ حماماً طويلاً لجسدي ولشعري..

أنهيتُ التجهيزات الممكنة كلها..

والتي ستجعلني غداً أبدو أجمل أمام جمال..

كدتُ أن أنسى طريقة استخدام وضع المساحيق بسبب انقطاعي..
بسبب المضايقات التي أفسدت رغبتي في اهتمامي بنفسي كأنثى..
فهذا يكاد يكون لقاؤنا الأول منفردين في مكان عام وبمزاجٍ مَرِح..
خلدتُ إلى النوم، ولم أنمْ بسهولة من فرط التفكير..
ومن تخيل السيناريوهات للغد الجميل الذي ينتظرني..

أتى الصباح..
وذهبتُ كالعادة برفقة بيانكا إلى المعهد..
لاحظت تأنقي واختلافي عن كل مرة..
وقبل أن أخبرها عن موعدي مع جمال، كي لا تأتي عند انصرافي..
سبقتني وقالت بلغتها العربية المكسرة مبتسمة:

- كم هو محظوظ جمال هذا اليوم!.
- اليوم؟ هل أخبركِ بموعد لقائنا؟
- بالتأكيد.. لا بدَّ أن يستأذن مني.. استمتعي بوقتكِ.

اجتاحتني بوادر غضب.. ولكني لا أريدها أن تفسد فرحتي..
لماذا يستأذن منها؟ هل هي وليُّ أمري.. أم وليُّ أمره أم ماذا؟!

أنزلتني أمام المعهد.. ثم غادرت..

بدأ الدرس، وكنتُ أراقب الساعة.. وشعرتُ كما لو أنها لا تتحرك..

وبعد انتهاء الوقت البطيء.. خرجتُ راكضة بعد أن ودعتُ صديقتي هاجر.. فوجدتُ جمال ينتظرني..

عندها تراجعتْ سرعة خطواتي، وأنا محرجة ومرتبكة..

لقد كانت إطلالتهُ جميلة حقاً.. شعرهُ مسرَّحٌ أفضل من كل مرة..

يرتدي قميصاً ورديا.. تاركاً اثنينِ من أزراره العلوية مفتوحة..

وبنطالاً أبيضَ، كان ضيقاً بعض الشيء..

فتح ذراعيه كما لو أنه ساحرٌ.. وقالَ مرحباً بي:

- أهلاً جميلتي..

شعرتُ عندها ببعض الدوار.. حاول التمكن مني، لكنني قاومته..

فكانت خطواتي نحوهُ ليست كخطواتي العادية..

كنت أسيرُ كما لو أنني على سطح ماء معتدل البرودة..

وصلتُ إليه.. وصافحتهُ.. فقط..

ثم توجهنا إلى سيارته في الخارج.. وقبل خروجنا من باب المعهد استوقفنا صوتٌ مُنادٍ.. يردِّدُ:

- جمااال.. جمااااال.. توقف!

التفتنا نحو مصدر الصوت.. لقد كان فادي!!

كان يهرول نحونا.. حتى وصل إلينا.. وبدأ يتحدث بغضب..

من أين يعرفه جمال؟!

نظرتُ إليه باستغراب، ثم إلى جمال..

الذي بدا حينها كما لو أنه مصدومٌ من رؤيته لفادي!!

تساءل فادي غاضباً:

- لماذا لا تجيبُ على اتصالاتي؟ ما الذي فعلته لتتجاهلني؟

تلعثمَ جمال، وهو ينظر إليّ، ثم إلى فادي وقال:

- أهلاً، أهلاً فادي، سوف نتكلم لاحقاً.

- لاحقاً!.. لن اتركك حتى تخبرني ما الذي يجعلك تبتعد؟

- ها.. لا ليس هناك شيء سوى الانشغال في العمل..

- أريد رقمك الجديد.. الآن.. لا بد أن نلتقي ونتحدث.

تذرَّعَ جمال بأن رقم هاتفه الحالي مخصص للعمل فقط..

وأعطاه الوعود بأنه سوف يتصل به، محاولاً إنهاء الحوار..

قبل أن ينظر فادي إليّ باستغراب، ويسألني أمامه :

- هل تعرفين جمال؟ إلى أين أنتما ذاهبان معاً؟!

سبقني جمال إلى الإجابة، كانت إجابة غريبة لم تعجبني:

- هي صديقة عزيزة، ولديها مشكلة ترغب في حلها.. فقط.

ثم طلب مني سرعة التوجه إلى السيارة، وهو يبعد فادي بيده ويخبره بأنه سيتصل به في أقرب فرصة..

لم يعجب ذلك فادي؛ فبدأ بالتهديد وهو يحاول حبس دموعه:

- أعلم أنك تكذب.. لكنها الفرصة الأخيرة يا جمال!

صعدنا السيارة، وكنتُ مستاءة ومحتارة..

سألته مباشرة:

- أخبرني ما الذي حدثَ قبل قليل؟

أجاب على سؤالي بسؤال آخر، وهو متوتر حيث قال:

- هل تعرفينه؟ ماذا يفعل هنا ولماذا يعرفكِ؟ هل يدرس معكِ؟

- على هونكَ يا جمال.. هو طالب في الصف نفسهُ الذي أدرس فيه.. أخبرني أنتَ.. بدا لي أنَّ هناك شيئاً بينكما لم أفهمه!

- لا شيء.. مجرد معرفة عمل سابق، أمور تخص هجرته.

تساءلتُ بغضب:

- هذه المرة الثانية يا جمال، والتي ترفض فيها متوتراً مبدأ الاعتراف بطبيعة علاقتنا.. هل تحرجكَ علاقتي معك أمام الناس الذين تعرفهم؟!

حاولَ تبرير ذلك بإعادة تلك الأعذار التي سبق وأن سردها لي..

ولم يعجبني شيءٌ من الذي قاله.. تضايقتُ كثيراً..

ووصله هذا الشعور.. حاول أن يخرجني من هذا الجو..

فقام بتشغيل المسجل كي نسمع أغنية..

معلناً أنها إهداء خاص لي..

كانت أغنية أجنبية لم أفهم منها أي شيء.. لكنها جميلة الألحان..

لا أعتقد أنه إهداء فعلاً.. بل هي محاولة لإنهاء موضوع فادي..

الحقيقة لم أكترث؛ طالما أنه أمر خاص كما يقول..

لولا طريقة الحوار المُريبة بينهما .. لما شغلني الموقف..

ربما قد بدأتُ التعود على أسلوبه هذا..

وصلنا إلى مقهىً..

جميلٍ جداً.. كانت الموسيقى في كل مكان.. الممرات مزدحمة..

الأطباق تنتشر وتتحرك بسرعة، على راحات أكفّ مقدميها..

جلسنا في مكان على طرف المقهى.. كان بالقرب من الزجاج المطل على الشارع.. روعة المكان لا توصف بسهولة..

بدأنا بتبادل النظرات.. وكان الإحراجُ متمكناً مني..

كنتُ أسترقُ بعض النظرات السريعة جداً..

إلى أن تجرأتُ، وقلتُ له كي يتوقف عن النظر:

- تحدَّث، قل شيئاً..
- أنا الآن أتحدث..
- لم أسمعك تقول شيئاً..
- عيناي تقولان.. انظري إليهما، وستسمعين.

هذا الأسلوب الذي يخاطبني به، هو نقطة ضعفي معه..

أكاد أن أسقط هياماً من تأثيرِ ما يقوله، ولكني أجدني عاجزة على مجاراته..

قاطعنا النادل بابتسامة.. وقدم لنا قائمة الأطعمة والمشروبات..

كانت باللغة الانجليزية.. نظرتُ قليلاً متظاهرة بالقراءة..

فسألني جمال:

- ماذا تشتهين اليوم؟

وكعادتي عندما أكون محرجة في موقف كهذا.. أجيبُ كالآتي:

- اخترْ لي الصنف الذي ستختاره نفسه.. أثق بذوقكَ.

- عظيم.. سنأخذ كوبين من القهوة.. برفقة كعكة الأناناس التي وعدتكِ بها.. سوف تعجبكِ حتماً.

ابتسمتُ له، وفي داخلي بعض الحسرة..

كنتُ أعتقد بأن هناك وجبة غداء بانتظاري..

فرائحة الطعام في هذا المقهى مغرية جداً..

وكذلك أشكال الأطعمة الشهية، التي على الطاولات المجاورة..

لا يهمّ.. المهم أنني مع جمال.. وفي مكان جميل كهذا..

طلب لنا ما أختارهُ.. ثم غادرَنا النادل..

ثم نظر إليّ، وسألني بتردد واضح:

- هل أنتِ مرتاحة في هذا المعهد يا سارة؟

- تعودتُ عليه بعد هذه المدة.. لماذا تسألني؟

- لا لشيء. ولكن أشعر أنه لا يروق لكِ.. ربما لبعد مسافته بعض الشيء عن مقر سكنكِ، لماذا لا تَختارين معهداً أقرب؟

- أخبرتني بيانكا بوجوب الاستمرار في هذا المعهد بالتحديد.

- منذ متى وفادي معكِ في الصف نفسهُ؟

- منذ أن انتسبْتُ إلى المعهد.. لماذا تكرر السؤال مرة أخرى؟

- لا شيء.. مجرد سؤال..

كرر حديثه ومحاولاته لإقناعي بالانتقال من المعهد إلى معهد آخر.. وسط استغرابي!..

لماذا الآن بالتحديد؟ لماذا هذا الإصرار؟

هل معرفتهُ بوجود فادي في المعهد.. هو السبب؟

لم أجادلهُ كثيراً.. فلو كان الأمر بيدي؛ لما ذهبت إلى أي معهد هنا

وصلت القهوة، برفقة الكعكة المصنوعة من فاكهة الأناناس..

وبينما كان يضع النادل الطلب على طاولتنا المطلة على الشارع..

ومن دون تمهيد.. وفي لمح البصر..

تناثر زجاج واجهة المحل علينا جميعاً!!

سقطنا جميعاً أرضاً، وشعرتُ بانسداد أذنيَّ تماماً.. وسقط النادل!

تبع ذلك صوت لطلقات نارية، لم تنقطع لحوالي دقيقة كاملة!!

كنتُ قد وضعتُ يديَّ على أذنيَّ، وأنا مغمضة العينين..

مقتربة من الأرض.. غير مصدقة لما يحدث..

ولم أفتح عينيّ، إلا على وجه النادل الذي تمددَ أمامي..

كان وجههُ غارقاً بالدماء، وبجانبه قد سقطت كعكة الأناناس..

لم أرَ في حياتي منظراً مرعباً كهذا.. سوى في الأفلام الأجنبية..
عندها، توجهتُ بالنظر إلى كرسي جمال مباشرة..
لكنني لم أجده في مكانه!
ومن فرط الرعب الذي أصاب كل جسدي..
ركضتُ وأنا أبكي غير مدركة إلى أين سوف اتَّجه!..
فسقط الحجاب عن رأسي.. دون أن أشعر بذلك..
حتى تلقفتني يدُ شخص غريب، وأرغمتني على النزول أرضاً..
والاختباء خلف بعض المقاعد.. نظرتُ إليه وأنا أرتجف خوفاً..
وإذ بامرأة شقراء ترتدي زيّ تقديم الطلبات.. لقد كانت نادلة..
تطلب مني الهدوء والانبطاح..
التفتتُ يميناً ويساراً، وإذ بالعشرات من الزبائن قد اختبؤوا خلف هذه الكراسي القطنية..
سألتُ عن جمال وأنا أبكي.. عدتُ للنظر إلى وجوه الموجودين ولم أجد له أيَّ أثر.. حاولتُ أن أرفع رأسي للبحث عنه..
ولكنهم رفضوا مساعدتي، وقام بعضهم بإجباري على الانخفاض..
تذكرتُ حينها شيئاً يقال له: البكاء.. فبكيتُ وأنا أحتضن النادلة وكانت تربِّت على ظهري بيديها، وتطلب مني الهدوء..
كان الهدوء حاضراً.. بعد هروب من تسبَّبَ بهذه الفوضى..

حتى سمعنا صوت سيارات الشرطة والإسعاف..
قاموا بإخلاء المقهى فوراً، وبإسعاف الجرحى ونقل القتلى..
فبدأتُ أهرول بذعر كالمجنونة.. وأنا أبكي وأصرخ:
- جمااااال.. جمااااال..
وجدتُ حجابي ملقىً على الأرض..
فتحسستُ شعري، وعلمتُ حينها أنه قد سقطَ مني..
أخذتهُ ونفضته من بعض الحطام، ووضعته على رأسي..
واصلتُ خطواتي قبل أن أجد أمامي حقيبتي التي سقطت مني..
حيثُ كنا نجلس أنا وجمال.. فهرعتُ نحوها وأخرجتُ هاتفي..
طلب مني أحد رجال الشرطة الخروج فوراً من المكان..
فخرجتُ من الجهة الأخرى برفقة الآخرين من المغادرين..
وإذ بصوت رنة هاتفي.. إنهُ جمال!!
أجبته مباشرة، والبكاء يطغى على صوتي:
- جمااااال.. هل أنتَ بخير؟!
فقاطعني، وهو يتحدث بسرعة:
- اسمعي ما سأقوله لكِ جيداً يا سارة.. استقلي سيارة أجرة وتوجهي إلى مسكنكِ مباشرة.. لن أتمكن من العودة إليكِ.. سأغيب بضعة أيام، ثم سأتواصل معكِ.

ثم أغلق هاتفه!

لم أصدق ما سمعته!.. أكاد أجن.. حتى أنني عدتُ للتأكد من صحة رقمه، غير مصدقة أن من تحدث معي هو جمال!

حاولتُ الاتصال به، ولكن هاتفه كان مغلقاً!!

أدركتُ أن ما حدث هو هجوم مسلح* من قبل مجموعة إجرامية..

قد يكون هجوماً إرهابياً، وقد يكون مجرد عملية سطو.. لم أعلم..

كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي وأنا أرتجف..

---

* ظاهرة حوادث إطلاق النار في كندا لا تنقطع.. وقعت هناك حادثة مشابهة للتي وقعت لبطلة الرواية سارة.. حيث نشرت وسائل إعلام غربية شريطاً مصوراً في يوليو 2018.. قالت إنه يوثق إقدام شخص مجهول على إطلاق النار على رواد مطعم في تورونتو، العاصمة الاقتصادية لكندا..

حيث أعلن قائد شرطة تورونتو، مارك سوندرز، الذي قال في مؤتمر صحفي، إن 14 شخصاً أصيبوا بجروح من بينهم شابة توفيت متأثرة بجروحها، في حادثة إطلاق الرصاص. وتابع سوندرز أن المهاجم، الذي استخدم مسدساً، قُتل في تبادل لإطلاق النار مع الشرطة، موضحاً أن الوقت مبكر جداً للحديث عن دوافع.

وقال شهود إنهم سمعوا سلسلة طلقات نارية، وصراخ أشخاص يلوذون بالفرار وروى جون تولوتش لصحيفة "غلوب أند ميل" تفاصيل الحادث وقال إنه "كان هناك إطلاق نار كثيف، ثم توقف وإطلاق نار من جديد ثم توقف. كان هناك ربما 20 إلى 30 طلقة نارية، وبدأنا بالجري."

وروت جودي ستيهاور لقناة "سي.بي.سي.نيوز" أنها كانت في مطعم مجاور مع أسرتهما عندما سمعت بين 10 و15 طلقة نارية، مضيفة أنه طلب منهم الاحتماء في القسم الخلفي للمطعم.

لماذا يتركني جمال، في ظرف مرعب وخطير كهذا؟

كيف اختفى بهذه السرعة، ولم أجده بعد سقوطي؟!

أسئلة كثيرة راودتني، جعلتني أنسى نفسي أثناء المسير..

فوجدتُ نفسي بين اثنين من المسعفين طلبا مني الجلوس..

ثم قاما بتعقيم بعض الخدوش الخفيفة، التي أصبتُ بها بسبب تطاير قطع الزجاج المتناثر جراء الهجوم..

لم ألاحظ هذه الخدوش أبداً، ولم أشعر بها لولا علاجهما لها..

ثم قاما بالكشف عليَّ، وتأكدا من سلامتي، وبأخذ معلوماتي من قبلهم، ومن قبل الشرطة..

احتجتُ قرابة نصف الساعة كي تزول مني الرعشة التي أصابتني.. ولم يختفِ الرعب تماماً.. ولكنه تناقصَ تدريجياً..

عدتُ بعد ذلك للاتصال بجمال.. ولكن لا فائدة..

ما زال هاتفه مغلقاً..

ابتعدتُ عن مكان الحادثة سيراً على الأقدام..

هرباً من تصوير بعض القنوات والاعلاميين الذين حضروا في الموقع.. إلى أن استوقفتُ سيارة أجرة، وعدتُ إلى مسكني..

وأنا في الطريق.. وبينما كنتُ أكفكف دموعي غير مصدقة ما مررتُ به.. رنَّ هاتفي.. فخفق قلبي ناطقة باسم جمال..

للأسف.. إنها بيانكا!

أجبتُها.. فهنّأتني بالسلامة، قبل أن أخبرها عن أي شيء بعد!!

فسألتها مستغربة:

- مَن الذي أخبركِ بما حدث معي؟

- جمال قبل قليل.. توجَّهي إلى مسكنكِ، سأكون هناك بانتظاركِ.

ثم أغلقتْ الهاتف..

وصلتُ.. ووجدتُها تقف أمام المدخل في انتظاري..

هنّأتني بالسلامة مرة أخرى.. ثم دخلنا سوياً إلى حجرتي..

فسألتها وأنا أمسك رأسي بسبب الصداع الذي لم يفارقني:

- أين جمال؟ ما الذي يحدث؟!

- جمال بخير.. أخبرني بأن لديه بعض الظروف الطارئة وسوف يعود قريباً.. تعاملي مع الأمور ببساطة يا سارة.

- ببساطة! لماذا حضرتْ الظروف في هذا التوقيت.. كدتُ أن أموت اليوم.. هل تعلمين حجم الفظاعة التي شاهدتها؟ لا أريد الآن سوى رؤية جمال.. فقط.

- سارة.. لن تذهبي إلى المعهد، على الأقل لمدة ثلاثة أيام متتالية.
- وما دخل سؤالي عن جمال، بحديثنا عن المعهد!!
- كل شيء مترابط.. لن أخبركِ أكثر.. إن كنتِ تحبين جمال فعلاً.. تعاملي مع الأحداث بهدوء.. حتى وإن كان مصطنعاً.

هزة غريبة أصابتني، جعلتني أفقد توازني..

فجلستُ على السرير.. وأنا أحاول النظر مباشرةً في عينيّ بيانكا..

ما الذي يحدث معي؟

لم أهنأ بأية لحظة راحة أشعر فيها بالفرحة الكاملة منذ وصولي..

كنتُ قبل سويعات، أعيش أفضل لحظاتي مع جمال..

وفي لمح البصر.. أصبحتُ أعيش أسوء اللحظات مع جمال أيضاً!

لماذا لا تكتمل الفرحة معي؟.. أصبحتُ أتساءل في نفسي..

هل هي لعنة عائلتي؟.. هل تقضي والدتي ليلها بالدعاء عليّ؟!

تستفزني كثيراً بيانكا، وقسوتها في التعامل مع الأحداث..

لا تعترف بالعواطف لا بالمشاعر.. تعاملني كالموظفة..

بل كالآلة.. تأمرني، ولا تنتظر مني سوى التنفيذ..

غادرتني، وتركتني في حيرتي..

بقيتُ أراقب هاتفي منتظرة اتصالَ جمال..

والدموع لم تفارقني.. القنوات هنا ليس لديها حديث سوى الحادثة..

استبدلتُ ملابسي المتسخة التي جهزتها خصيصاً من أجل جمال..

ثم أخذتُ حماماً ساخناً.. وبقيتُ على فراشي أتابع الأخبار..

لم يزر النوم عينيَّ طوال الليل.. ولكن الإرهاق لا بدَّ وأن ينتصر..

فنمتُ نوماً متقطعاً غيرَ مريح.. وبقيتُ أراقب هاتفي كلما وعيتُ..

لعل وعسى يتصل بي جمال..

ليس أسوأ من البعد من غير إخطار!

هذا النوع من البعد.. قد يخلق في داخلك اضطرابات قوية..

تخلف جروحاً غائرة لا ترحم.. الموت نفسه الذي نخافه..

قد يكون أرحم منها.. لأن ألمه لحظي وله نهاية..

أما مثل هذا النوع من البُعد.. يكون ألمه مفتوحاً من دون نهاية!

في اليوم التالي..

تلقيتُ اتصالاً عند الظهيرة..

كانت صديقتي الكويتية هاجر.. أجبتُها بعد تردد..

كانت تسأل عن سبب غيابي عن المعهد..

أخبرتها يائسة بأني لا أعلم؟.. فاستغربت من إجابتي!..

ثم تذرَّعتُ ببعض الظروف.. شعرتُ كما لو أن لديها شيئاً تريد أن تقوله.. ولكن هناك أمرٌ يمنعها.. فقمتُ بتكرار شكري لها حتى لا أسمح لها بالحديث كثيراً.. فلقد كنتُ في حالة نفسية لا تسمح لي بالتحدث كثيراً..

ومنعاً لإحراجي، تظاهرت بتفهمها لخصوصية ظروفي..

ثم طلبت مني أن أعتبرها شقيقتي.. وأن لا أتردد في طلب المساعدة منها..

فشكرتُها على موقفها.. وانتهتْ المكالمة..

مرت الساعات، وأنا في مسكني..

لم أخرج إلا من أجل اقتناء بعض المواد الغذائية، من المركز الصغير القريب من مسكني..

كلما قضيتُ احتياجاتي سيراً على الأقدام..
كان هناك شيءٌ يقبضُ على قلبي.. لم ترقْ لي أرصفة تورونتو..
ولا حتى أشجارها ولا سماؤها.. لا شيء يعجبني هنا..
ربما العيب فيَّ وليس فيها.. أو ربما لأنني لم أهنأ منذ وصولي بأية لحظة هدوء حقيقية، تجعلني أتقبل الأجواء بعد تأملي فيها..
لم يفارقني الحزن ولا القلق، ولا حتى عذاب الانتظار..
قمة العجز.. أن تنتظر غائباً لا تعلم عنه أي شيء..
أن تجد نفسك صامتاً تنتظر ظهوره.. ولا تملك سوى ذلك!

بعد يومين فقط من اتصالها السابق..
اتصلت بي هاجر مرة أخرى.. قرابة الساعة السادسة ليلاً..
كانت تحمل خبراً غير متوقعٍ.. كله رُعب!
فادي قُتل !!
شعرتُ بأمواج لهب، كما لو أنها قد لفحت مسامات جسدي كلها..
لم أصدق ما سمعتهُ.. فعدتُ لكي أسألها أن تعيد ما قالته..
فوجدتُها تكرر تأكيد المعلومة، وهي تبكي بقوة..

أصبحتُ أخشى الإجابة على أي اتصال، بسبب تتابع الأخبار السيئة كيف لذلك الشخص الهادئ والبسيط أن يُقتل!!

من الذي تجرأ على قلته؟ ولماذا؟!

وجدتُ نفسي أبكي مع هاجر.. وأدعو له بالرحمة..

سألتُها، وأنا أكفكف دموعي:

- كيف قُتل؟ وهل لمثل فادي أعداء؟!

- القصة المتداولة في المعهد قصة بشعة.. وما جعلها تكاد بأن تكون قصة رسمية.. هي تناقلها في وسائل الإعلام هذا اليوم والجميع ينتظر بيان الشرطة.

حاولتُ معرفة ما يتم تداوله، ولكنها انشغلتْ واستأذنت مني..

وطلبتْ بعض الوقت؛ لتعاود الاتصال..

وبعد ساعتين.. عادت للاتصال وهي تبكي.. قالت لي:

- سارة.. أشعر أنني مخنوقة جداً.. أعلنتْ الشرطة تفاصيل ما توصلتْ إليه من تحقيقات.. أريد لقاءكِ فوراً.. لا أحتمل البقاء وحدي.. سوف يقتلني الحزن على فادي.

عرضت عليّ فكرة الحضور إلى مسكني.. فرحبتُ بها فوراً..

فأنا أيضاً أحتاج إلى من يسمعني، ويؤنس وحدتي المقلقة..

فالحديث في تفاصيل خبر مفجع كهذا.. لا تكفيه مكالمة صوتية..

يبدو أنَّ غرفتي البسيطة والصغيرة..

قد أصبحت مقراً للحديث عن الأخبار السيئة والمزعجة..

وصلتْ هاجر.. استقبلتُها واطمأنتْ عليّ، ثم جلست أمامي..

بقيت صامتة، وهي تنظر إلى الأرض..

ثم رفعتْ رأسها، وهي تبعد شعرها المجعد عن وجهها..

وقالت لي وهي مرعوبة وباكية:

- لقد وجدوا جثة فادي في حقيبة قديمة.. ملقاة بالقرب من إحدى براميل النفايات.. ووضعُها ليس على ما يرام.

آخر ما كنتُ أنتظرهُ.. أن أستمع لمثل هذه التفاصيل المرعبة!

سألتُها وأنا أقبض بكفّ يدي اليمنى على الكف اليسرى:

- ماذا تقصدين بأن وضعها ليس على ما يرام؟!

ارتفع صوتها بالبكاء وهي تغمض عينيها.. إلى أن قالت:

- يقول التقرير الطبي كما نُشر في الإعلام.. أن هناك من اعتدى عليه جنسياً.. ثم قام بقتله.. ثم تخلص منه بهذه الطريقة.

لم احتمل ما سمعتهُ من تفاصيل لمثل هذه الجريمة البشعة*..

ركضتُ مسرعة نحو المرحاض.. وتقيّأتُ حتى كادت قصبتي الهوائية أن تُخلع من مكانها.. شعرتُ أن روحي ستُقتلع من داخلي، وبقيت هاجر تبكي، وهي خافضة رأسها..

---

* وقعت قصة مشابهة إلى حدٍّ ما في كندا.. ولكنها أكثر غرابة وأكثر بشاعة بشكل لا تتقبله النفس البشرية من قبل شاب كندي وسيم مع عشيقه الشاب الصيني!

يقول الخبر:

انتهت رحلة الكندي لوكا روكو مانيوتا البالغ من العمر 29 سنة إثر توقيفه في "مقهى إنترنت" في العاصمة الألمانية برلين أمس الاثنين، بعد أسبوع من المطاردة من كندا إلى ألمانيا مرورا بفرنسا. ولقب لوكا روكو مانيوتا الممثل في أفلام إباحية بـ "الكندي المختل" وبدأت أحداث القصة في 29 مايو/أيار عندما عثرت الشرطة على جزء من جسد.. داخل حقيبة في أحد أحياء مونتريال، وأثبتَ أن الجزء تابع لجون لي وهو طالب صيني في 32 من العمر، كان يدرس المعلوماتية في جامعة "كونكورديا"، ليصل بعد بضع ساعات طرد بريدي يحتوي على ساق الضحية إلى مقر الحزب المحافظ الكندي، لتتمكن الشرطة بعدها من حجز طرد آخر يحتوي على يد جون لي، قبيل أن يتم إرساله إلى مكتب الحزب الليبرالي.

وسريعاً ما تمكنت الشرطة من تحديد موقع شقة لوكا مانيوتا، حيث وجدت آثاراً للجريمة التي نفذت على مراحل: ربط القاتل المفترض جون لي إلى الفراش من معصميه وقدميه، ثم قتله مستعملاً معول ثلج وسكاكين قبل أن يقطع أوصاله ورأسه ويفرغ أمعاءه، وتمادى القاتل في مداعبات جنسية لجسد ضحيته الهامد، ثم أكل منه بعض الأجزاء، كل هذا أمام الكاميرا.

وحمل لوكا روكو مانيوتا الشغوف بالشبكة العنكبوتية فيديو جريمته على الإنترنت تحت عنوان "المختل العقلي ومعول الثلج" ويدوم 11 دقيقة، ثم اختفى لوكا الذي كان يرتاد الإنترنت بانتظام على الشبكة.

المصدر: France 24 نشر في 5 يونيو 2012.

عدتُ للجلوس..

وسألتها عن القاتل، وأنا أمسح عينيَّ وفمي بمنديل:

- هل تم القبض عليه أم بعد؟

فأخبرتني بأنهم ما زالوا يبحثون عنه.. وبأن مثل هذه الأمور تحتاج إلى بعض الوقت.. وتمنت ألَّا يطول ذلك..

ثم واصلت، وهي في قمة حزنها:

- لطالما سمعنا من الإعلام المحلي هنا عن جرائم قتل.. تحدث بين فترة وأخرى.. ولكن لم أتوقع يوماً أن يكون ضحية إحدى هذه القصص المأساوية، شخص أعرفه ويعرفني.

بقينا صامتتين.. تارة نبكي.. وتارة ندعو له بالرحمة..

حتى مسحت هاجر دموعها، ونظرت إليّ.. وأطالت النظر..

لاحظت هاجر تغيراً على وجهي وعلى نضارتهِ..

لاحظت جسدي المنهك، ووزني الناقص..

ولاحظتْ اتساخ المكان، والروائح السيئة في الغرفة..

أخبرتني بأنها لاحظت ذلك منذ وصولها، ولكنها تجاهلت الأمر..

للأسف.. كلها تغيرات حدثت في أيام قليلة، بسبب ما مررتُ به..

لم ألاحظها، لو لم تخبرني عنها!

كثرة التفكير والقلق وقلة النوم.. هم السبب في كل هذا..

حاولت هاجر معرفة ما الذي حدث معي؟..

وكعادتي حاولتُ التهرب.. ولكني كنتُ أحوج للحديث..

فأخبرتها بعد محاولات وإصرار منها..

عن قصة وجودي في المقهى، الذي وقعت فيه الحادثة للتوّ..

و تذرَّعْتُ بأن غيابي سببه نفسيتي السيئة؛ لهول ما رأيت..

ذهلتْ هاجر من الخبر، واقتربت مني واحتضنتني احتضاناً صادقاً..

كان شعوراً جميلاً لا يوصف.. شعرتُ بالأمان من خلاله..

ووجدتُ نفسي أبكي، غير متمالكة لنفسي..

وأحكمتْ هاجر عِناقها لي أكثر فأكثر..

وطلبت مني الهدوء.. فالأهمّ هو سلامتي من أي ضرر..

ثم عاتبتني قليلاً؛ لعدم إخباري لها بمثل هذا الخبر المريع..

فالحادثة كما تقول كانت حديث كندا كلها..

ولم تتوقع أبداً أن أكون أنا بنفسي.. قد عشتُ تفاصيلها..

وذكرتني بمكالمتها لي.. وأنه كان بإمكاني أن أخبرها مباشرة..

ولكني اعتذرتُ لها.. وطلبتُ منها تقدير وضعي النفسي وقتها..
جلستْ معي حتى اطمأنت عليّ.. وعرضتْ عليّ بعض الخدمات..
وشكرتُها على كل شيء.. قبل أن تأخذ وعداً مني بالتواصل معها..

اقتربت الساعة من الحادية عشرة ليلاً..
وقبل أن تغادرني.. نظرت إليّ.. ثم سألتني سؤالاً غير متوقعٍ..
حيث قالت:

- قد يكون هذا ليس هو الوقت المناسب للسؤال يا سارة.. لكن هناك شيءٌ يشغلني.. كيف تعرفين شخصاً كجمال؟!

تساؤلها كان تساؤلاً صادماً غير منتظرٍ.. فرددتُ عليها:

- مثل جمال!.. من أخبركِ عنهُ، ومن أين تعرفينه؟!
- لقد رأيته ذلك اليوم، وهو يأخذكِ من المعهد.. أريد إجابة؟
- أنا من تريد الإجابة.. من أين تعرفينه؟
- ومن لا يعرف جمال من المهاجرين.. سيّئي الحظ خصوصاً.
- سيّئو الحظ!.. هل تعملينَ عمن تتحدثين يا هاجر؟
- نعم أعلم جيداً.. عن جمال.. أشهر محتالي تجارة الهجرة

والإقامة الدائمة* بين الشباب في كندا.. وذلك بفضل علاقاته القوية والمشبوهة.

---

* انتشرت ظاهرة الاحتيال فيما يخص طلب الهجرة أو الإقامة الدائمة في كندا.. حتى أصبحت الحكومة نفسها تحذر من التعامل مع أية جهات مجهولة تستغل حاجة طالبي الدخول إلى كندا.. هذا الخبر يكشف لنا أشهر عمليات النصب بـ "الإقامة الدائمة" حيث جاء على النحو التالي:

كشفت وكالة الخدمات الحدوديّة الكنديّة عن خطّة احتيال واسعة النطاق في مجال الهجرة في مقاطعة ساسكتشوان، شارك فيه زوجان من مدينة وايت سيتي هما كي وانغ ويوجوان كوي، فضلاً عن المئات من أصحاب الأعمال من الرعايا الصينيّين ونحو 12 من أصحاب الأعمال من ساسكتشوان.

وفي عام 2015، وجّه الادّعاء العام إلى الزوجين تهمة تلقّي الأموال من رعايا صينيّين ينتظرون الحصول على الإقامة الدائمة في كندا، مقابل توفير رسائل لعروض عمل معظمها وهميّة لهم.

كما يواجه الزوجان تهمة دفع الأموال لأصحاب أعمال في ساسكتشوان لقاء عروض عمل وهميّة بمعظمها، لطالبي هجرة من الرعايا الصينيّين. وقام الزوجان في بعض الأحيان بتزوير وثائق لعروض عمل دون الحصول على موافقة صريحة من صاحب العمل.

وباشرت وكالة الخدمات الحدوديّة تحقيقاتها منذ العام 2012 عندما راودتها شكوك بشأن شرعيّة عدد من طلبات الهجرة التي كانت للزوجين وانغ وكوي علاقة بها.

وعثرت على 1200 اسم تعود لرعايا صينيّين، من بينها 641 اسماً وارداً في نظام الهجرة الكندي، حصل 78 شخصاً منهم على الإقامة الدائمة في كندا.

وحصلت الوكالة على هذه المعلومات من خلال وثائق صادرتها من منزل الزوجين الصينيين القريب من ريجاينا عاصمة ساسكتشوان.

ويقول الادّعاء العام إنّ الزوجين حصلا بصورة غير شرعيّة على نحو 600 ألف دولار من رعايا صينيّين، ودفعا نحواً من 95 ألف دولار لـ17 شركة في ساسكتشوان، من بينها شركة يملكها عمدة ريجاينا السابق دوغ آرتشر وزوجته.

وتُعتبر عمليّة الاحتيال تلك الأكبر من نوعها في مجال الهجرة في ساسكتشوان منذ أن تولّت وكالة الخدمات الحدوديّة مسؤوليّة ملاحقة قضايا المخالفات الجرميّة في مجال الهجرة.

المصدر: راديو كندا الدولي/ سي بي سي/ راديو كند.. نشر في 4 يوليو 2019 .

وقفتُ على قدميَّ.. ومن دون أن أعي ما فعلته..

صرختُ، وأنا أقول:

- ما الذي تقولينه؟!

- أقول لكِ الحقيقة.

- ومن أنتِ كي تتحدثي معي عن جمال بهذه الطريقة؟

- أنا صديقتكِ.

- وهو حبيبي وخطيبي، وزوجي قريباً..

عبارتي هذه حلَّتْ كالصدمة على هاجر..

اتسعتْ عيناها بسرعة، كما لو أنهما سوف تخرجان من مكانهما..

وظل فمها مفتوحاً لبعض الوقت..

ثم بدأت تردد:

- مستحيل.. مستحيل.. لا أصدق..

- ما هو المستحيل.. المستحيل أن أسمح لكِ بالحديث عن جمال بهذه الطريقة السيئة، وغير الأخلاقية..

أرادتْ أن تكمل حديثها.. ولكني لم أترك لها فرصة للحديث..

حتى أنني بدأتُ بالانفعال والغضب، وأوشكتُ على طردها..

حيث كانت حالتي النفسية حينها في أتعس لحظاتها..

قاطع صراخنا صوت طرق الباب..

سألتُ من الطارق؟..

وأجابني بأنه موظف توصيل طلبات المطاعم..

لم أطلب شيئاً!

ولكنه أصرَّ على صحة العنوان، وعلى أنَّ هناك طلباً باسمي..

فتحتُ الباب بسرعة..

كي أطرده، ومن ثم أتفرغ لإنهاء مضايقات هاجر..

لم تصدق عيناي ما رأيته!

أخي مازن!!

شُلتْ أعضائي غير مصدقة لما أرى.. تسمرتُ في مكاني..

قبل أن يندفع نحوي مباشرة.. ويدفعني بقوة، ثم يغلق الباب!

ويخرج سلاحاً أبيضَ محذراً من إصدار أي صوت!

هربتُ، وقدماي ثقيلتا الحركة، خلف هاجر التي كانت مصدومة من المشهد!..

صرختْ هاجر، ولكنه اقترب منها، وهددها بأنَّ إصدار أي صوت
آخر.. يعني طعنها مباشرة..
كنتُ أرتجف وأبكي، ولستُ مصدقه لما تشاهده عينيَ..
لقد تمنيتُ الموت في تلك اللحظة..
كنتُ أسأل نفسي: هل أنا أحلم أم ماذا؟.. لقد كان حقيقة للأسف..
تحدثَ وهو يزبد ويرعد وينظر إليّ غاضباً نظرة مخيفة:
- أظننتِ أنني سأتركك تجلبين لنا العار يا قذرة؟
ثم سحبني من شعري وأنزلني أرضاً، كما كان يفعل معي دائماً..
تصرفهُ هذا أعادني بالذاكرة إلى الوراء..
تذكرتُ تصرف والدي معي، عندما كنتُ أدرس في المرحلة الابتدائية!
التصرف الذي تسبَّبَ لي بأزمة نفسية، عندما كنت صغيرة..
فمثلما سحب والدي شعري سابقاً أمام صديقتي ريناد..
كرر أخي فعلته وأنا كبيرة.. ولكن هذه المرة أمام صديقتي هاجر!
ما أشبه اليوم بالأمس!..
وما أبشع الألم الذي ينبش أسوأ ما أوشكتْ الذاكرة على نسيانه..
أشار إلى هاجر غاضباً، طالباً منها الجلوس على الأرض..

فأطاعته مباشرة، وهي ترتعد خوفاً، وتتوسل إليه بأن يهدأ بعدما علمتْ أنه أخي..

كنتُ أنظر إلى السكين الحادة، وأنا أشعر بأن نهايتي قد اقتربت..

كنتُ كالشاة التي تنتظر ذبحها.. ولا مفر لها سوى قبول نهايتها!

قامَ برفسي على بطني عدة مرات.. وركلي على وجهي..

حاولتْ هاجر الاقتراب، لكنه كان يهددها بالسكين فتتراجع..

قبل أن يُكسر الباب فجأة، ويُفزعنا جميعاً!

كانا رجلين من الشرطة، دخلا علينا رافعيْن السلاح!!

فاضطر أخي الجبان إلى إلقاء السكين، غير مصدّقٍ لما رأى..

وهو يكرر جملة إنجليزية واحدة:

- إنها أختي.. إنها أختي..

فتدخلت هاجر، وهي تصرخ، وأخبرت الشرطيين بكل شيء..

تم القبض على أخي فوراً، وسط مقاومته..

ثم نُقل إلى مركز الشرطة مكبَّلاً بالأصفاد..

وسط شتائمه وتهديده لي، ونظراته الغاضبة والمرعبة..

وأخبرَنا قبل ذلك الشرطي، بوجوب الحضور إلى المركز..

لأخذ أقوالنا.. وقام بإخبارنا بالعنوان..

وأخبرتُ الشرطة بكل شيء وطلبتُ منهم حمايتي من أخي..
وأخبرتْهم كذلك هاجر بالتفاصيل كلّها..
وتحدثت بيانكا بصفتها محامية وناشطة حقوقية ترعى حالتي..
وقدمت لهم جميع الأوراق التي تدل على وجودي هنا كلاجئة..
وأخبرتهم عن الخطر الذي يلاحقني من عائلتي، والعديد من الأمور
وطلبتْ من الشرطة أن يستخرجوا لي تقريراً طبياً..
يثبت الاعتداء الذي تعرضتُ له من قِبل أخي..
ثم وقّعتُ على أقوالي جميعها، دون أن ألتقي بمازن..
لا يهمني المصير الذي ينتظره على فعلتهِ الشنيعة هذه..
فكُرهي المتزايد له.. يجعلني أتمنى له أشد أنواع العقاب..
غادرنا وعدنا إلى مسكني، حتى تستقل هاجر سيارتها من هناك..
أرادت هاجر أن تودعني، ولكنني طلبتُ منها الانتظار قليلاً..
وقبل ذهاب بيانكا.. استوقفتُها وسألتها عن جمال..
فأخبرتني بأنها مسألة وقت فقط، وسيأتي إليّ بعدما تنتهي ظروفه!
لا فائدة من هذه اللعينة.. لا أتمكن من سؤالها عن شيء..
ولا أجدُ رداً شافياً على أي سؤال..

ثم سألتُها عن احتمال عودة أخي لقتلي.. فما زلتُ أرتعب من مجرد التفكير بأنه أصبح موجوداً في المدينة نفسها التي أقطنُ فيها..
فطمأنتني بأن اعتقالهُ سيطول.. ولن يُفلت من فعلته بسهولة..
حاولتُ أن استفسر منها عن كيفية إنهاء اجراءات التقرير الطبي..
فقالت لي وهي تبتسم:

- سأُنهي الموضوع بنفسي.. لا حاجة لذهابكِ من أجل ذلك.

إجابة غريبة.. لم أفهمها.. حاولتُ فهم ما تقصد..
ولكنها ودَّعتني، وغادرت مسرعة..
عدتُ إلى هاجر التي كانت تنتظرني على طرف الرصيف..
وأخبرتُها بأنَّ هناك شيئاً ما يشغلني..
قلتُ لها بكل وضوح:

- قلبي لا يرتاح إلى هذه المرأة منذ أن أُجبرتُ على معرفتها.. أريد منكِ أن تدخلي معي الآن.. إلى مدخل هذا المسكن.. وأن تسألي الرجل الذي أنقذنا وطلب الشرطة.

تجاوبت هاجر مع طلبي لكنها سألتني:

- ما السؤال الذي تريدين مني أن أسأله له؟

- هل هو من أخبر بيانكا عن حادثة تهجم أخي أم لا؟ فقط.

وافقتْ على فكرتي، ثم دخلنا إلى ركن الاستقبال الصغير عند المدخل.. وبالفعل سألته هاجر بعد أن تبادلنا التحية معه..

واطمأن على صحتنا.. فأجابَ، وترجمت لي هاجر إجابته قائلة:

- يقول بأنه هو من أخبرها.. وذلك بعدما أبلغ الشرطة مباشرة.. كي تأتي إلينا بسرعة.. لأنها سبق وأن أعطت رقم هاتفها لهم في الاستقبال.. منذ اليوم الأول الذي وصلتِ فيه يا سارة إلى هذا المسكن.

هذه الإجابة أراحتني كثيراً، وأبعدت بعض الشكوك التي تضايقني..

شكرنا الرجل على تجاوبِهِ..

ثم التفتُّ إلى هاجر، واعتذرتُ منها عن ما حصل كلّه..

فقلتُ لها بكل صدق:

- لقد تسبَّبَ لكِ بذكرى سيئة.. أنا آسفة فعلاً يا هاجر.. أنتِ كفتاة كويتية.. أكثر من يفهمني ويفهم طبيعتي كفتاة سعودية.. لذلك أجدُني أرتاح عندما أتواصل معكِ.

وكعادتها الطيبة.. ابتسمتْ لي ابتسامتها الهادئة التي تريحني..

ثم احتضنتني وقبلتني وأخبرتني بأنها ستستمر في التواصل معي..

غادرت، وعدتُ أنا إلى غرفتي الكئيبة.. ووجدتُ بأنَّ الإدارة قد أصلحتْ لي بابها المكسور بسبب اقتحام الشرطة..

تواصلتُ مع شقيقتي فرح فور وصولي..

وأخبرتُها بكل التفاصيل..

كانت مصدومة من الفعل الذي قام به مازن..

حيثُ لم تتوقع أن يتجرأ ويصل إلى كندا؛ باحثاً عن الانتقام..

لم تبكِ من أجله.. كانت تبكي خوفاً من ردة فعل والدتي، عندما ستخبرها بما حدث.. الحقيقة لم يشغلني ذلك..

فما زالت والدتي ترفض التواصل معي..

وتهتم لمشاعر مازن على الرغم من كل شيء فعله بحقنا جميعاً..

كان لديّ شعور سيء جداً، يخبرني بأن على والدتي أن تتجرع بعضاً من هذا القهر، الذي تسببتْ به لنا هي ووالدي المرحوم..

فنحنُ للأسف نعيش في دوامة من المشاكل التي لا تنتهي..

لطالما شعرتُ أنني السبب.. فيما حدث لعائلتي مؤخراً بسبب هروبي.. ولكن الحقيقة تقول أنني لستُ كذلك..

فأنا لستُ سوى ضحية اختارتْ الهرب من هذه المشاكل..

ولكنها ظلت تطاردها في كل مكان تصل إليه..
المشاكل لا تطاردني.. هي تقبع في داخلي وترفض الفراق!
مللتُ من إحساس البقاء مشغولة البال.. متألمة.. خائفة..
أنتظرُ جمال.. وأحذرُ من مازن.. وقلقة من القادم!

- لا شيء مجرد السلام عليكِ.. لماذا تعاملينني هكذا؟
- لماذا تعاملينَ وطنكِ أنتِ هكذا؟ أشعر بالخزي من وقوفي معكِ.

لم أتوقع أن يحضر بيننا هذا الحوار في هذه اللحظة..

شعرتُ كما لو أنها قد صفعتني صفعات متتالية..

التقطتُ أنفاسي، وتجاهلت احمرار وجهي.. قائلة لها:

- لا تخاطبيني بهذه اللهجة يا سهى.. أنتِ لا تعلمين شيئاً.. أنا أستوقفكِ للسلام، ثم لأقول لكِ بأنني قد أُعجبتُ بردة فعلكِ في تلك الليلة التي التقينا فيها.
- أشكركِ.. وأتمنى أن تستغلي حسابكِ للمطالبات المسالمة المهذبة، والتي لا تجعلكِ في موقف عداء مع وطنكِ الطيب جداً معنا جميعاً.

حديثها كان مؤلماً وحازماً..

ثم تحدَّثنا قليلاً ووجدتُها قد أسهبت في الحديث.. ودخلتْ في تفاصيل كثيرة.. كانت تنصحني وتحذرني وتشرح لي ما يحدث هنا..

والكثير من الأمور التي لم أفهمها.. كنتُ أنظر إلى عينيها فقط..

وأرى فيهما الحماس والتفاعل والصدق.. ولا أقوى على الرد..
قلتُ في نفسي، والحزن يتصاعد في داخلي أثناء مواصلتها الحديث:
- ليتكِ خفَّفتِ عن قلبي يا سهى!

بعد كلماتها القاسية تجاهي.. دخل الشك إلى قلبي..
أيقنتُ أنني لستُ سوى لعبة، في أيادي فئة بشعة من الناس..
ترتزق على مشاكلنا.. يبحثون عن المال، وعن تصفية الحسابات السياسية..
المطالبة بالحقوق مع هؤلاء الأوباش المتعطشين للمال وللشهرة..
تحتاج إلى أناس مطّلعين ومستقلين.. مثل سهى تماماً..
قد نقبل جرأتهم وتجاوزهم لبعض الخطوط، من باب حق إبداء الرأي..
لكن ليس هناك أي عذر لأن يكون أحد هذه الخطوط.. هو الوطن!
أنا لم أبحثْ سوى عن الاستقرار العاطفي..
والذي لم أجده في أسرتي المفككة للأسف..

لم أجد من ينصحني كي أتوجه إلى الجهات المعنية بحمايتي في داخل بلدي.. واللحظة التي حاولتُ فيها البحث عن الجهة المناسبة..

كان من السهل جداً أن ينجح جمال في تخويفي؛ بسبب قلة نشر الوعي* والتقصير في الوصول إلى شريحة المعنفين والمتضررين أمثالي..

---

* هناك مشكلة واضحة في "نشر الوعي" تجاه الأفراد لمعرفة حقوقهم داخل الأسرة.. وهناك مشكلة أخرى تتمثل في طريقة التعامل معها وفق القوانين.. حيث قام برنامج الأمان الأسري الوطني في السعودية بإجراء دراسة مهمة ونتائجها صادمة جداً.. حيث تعتبر هذه الدراسة أول دراسة عملية يتم إجراؤها على مستوى البلاد حول الوعي تجاه الإجراءات المتبعة ضد ظاهرة العنف الأسري والعنف ضد الأطفال..

هذه الدراسة تعد أكبر دراسة علمية، من حيث حجم العينة (5.075)..

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها شملت عدداً كبيراً من الجهات المعينة، التي تتعامل مع حالات العنف الأسري، والعنف ضد الأطفال..

حيث شملت التالي:

منهجية وآلية الدراسة:

هذه دراسة وصفية تحليلة اعتمدت منهج المسح الاجتماعي بأسلوب العينة العشوائية . وقد قرر الباحثون أن مجتمع الدراسة الراهن يتكون من مجموع العاملين و العاملات في المدن والمحافظات في المناطق الإدارية الثلاثة عشرة في المملكة العربية السعودية في القطاعات الست التالية:

أ- **مدارس حكومية (بنون) في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية.**
ب- **مدارس حكومية (بنات) في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية.**
ج- **وزارة الصحة / المستشفيات الرئيسية.**
د- **وزارة الشؤون الإجتماعية بما في ذلك الجمعيات الخيرية.**
هـ- **أقسام الشرطة.**
و- **وزارة العدل و المحاكم التابعة لها.**

حيث كانت النتائج تجاه الوعي كالتالي:

نتائج الوعي بالعنف ضد الاطفال:

١- **الوعي بالعنف الأسري /خاصة العنف ضد الأطفال:**

- ٧٨,٥٪ من عينة الدراسة اتفقوا على أن الاعتداء على الأطفال وإهمالهم موجود في المملكة العربية السعودية.
- ٥٦٪ من عينة الدراسة اتفقوا على أن الاعتداء على الأطفال وإهمالهم يمثل ظاهرة في المملكة العربية السعودية.
- ٦١ ٪ من عينة الدراسة اتفقوا على أن الأرقام الواقعية لحالات الاعتداء على الأطفال وإهمالهم تفوق الأرقام في التقارير الرسمية.
- ٨٠ ٪ من عينة الدراسة اتفقوا على أن السعوديين في حاجة لأنظمة حماية الطفل من الاعتداء والإهمال.
- ٤٢ ٪ فقط من عينة الدراسة ذكروا أنه توجد مؤسسات وجهات متخصصة في المملكة العربية السعودية تقوم بحماية الأطفال.
- يشكل منسوبي الجمعيات الخيرية والمستشفيات أكثر الفئات الاجتماعية وعياً لموضوع الاعتداء على الأطفال وإهمالهم (٤٥٪ و ٤٤٪ على التوالي).
- أبدى منسوبوا المحاكم الشرعية وأنظمة القضاء يليهم منسوبوا مدارس البنين أدنى مستوى وعي بظاهرة إيذاء الأطفال وإهمالهم بنسبة ٢٨٪ لكليهما .

جدول (١) الوعي بالعنف ضد الأطفال

	العبارة	موافق	غير موافق
١	إيذاء الأطفال يمثل ظاهرة في المملكة	٧٥٥,٨	٧٣٢,٩
٢	قضية إيذاء الأطفال مضخمة إعلاميا	٧٤٤,٩	٧٣٧,٧
٣	الحالات الحقيقية لإيذاء الأطفال أكثر مما يظهر على السطح	٧٦١,٢	٧١٦,١
٤	إيذاء الأطفال موجود في المملكة	٧٧٨,٤	٧١١,٨
٥	استطيع التمييز بين الطفل المتعرض للإيذاء وبين من وقع له حادث عرضي	٧١٤,٥	٧١٠,٩
٦	هناك حاجة لوجود نظام لحماية الطفل من الإيذاء	٧٨٠,١	٧١٠,١
٧	للمملكة لديها من الأنظمة ما يكفل حماية الطفل من الإيذاء	٧٤٧,٨	٧٢٦,٨
٨	معظم الأطفال يتعرضون للإيذاء من قبل الوالدين	٧٥٠,٧	٧٣٦,٩
٩	الأطفال المتعرضون للإيذاء يحتاجون حماية	٧٨٨,٨	٧٥,٤
١٠	هناك أجهزة في الدولة معنية بحماية الطفل من الإيذاء	٧٤١,٩	٧٢٢,٦
١١	الجهود المبذولة حالياً لحماية الطفل من الإيذاء كافية	٧٣٠,٠	٧٤٥,١
١٢	يجب أن يعاقب من يقوم بالاعتداء على الأطفال	٧٩٢,٤	٧٤,٢

المجموع في كل سطر لا يساوي ١٠٠٪ لأنه تم حذف نسب إجابات (لا أدري) و (بيانات مفقودة)

يقصد بالمملكة – المملكة العربية السعودية

نتائج الوعي بالعنف ضد المرأة:

٢. الوعي بالعنف الأسري/ خاصة العنف ضد المرأة :

- ٧١٪ من عينة الدراسة اتفقوا على وجود العنف الأسري في المملكة العربية السعودية.
- ٤٩٪ من عينة الدراسة اتفقوا على أن مشكلة العنف الأسري تشكل ظاهرة في المملكة العربية السعودية.
- ٦٠٪ من عينة الدراسة يرون أن الأرقام الرسمية لأعداد ضحايا العنف الأسري أقل من الأرقام الحقيقية على أرض الواقع.
- ٦٨٪ يرون ضرورة وجود أنظمة لحماية المرأة من العنف الأسري في المملكة.
- ٤٣٪ من عينة الدراسة فقط أفادوا بوجود مؤسسات وجهات تحمي المرأة من العنف الأسري.
- منسوبوا المستشفيات والمراكز الطبية هم أكثر وعياً بموضوع العنف الأسري (٤٨٪). يليهم منسوبوا الجمعيات الخيرية (٤٤٪).
- وجدت الدراسة أن أقل فئات المجتمع وعياً بموضوع العنف الأسري هم منسوبوا المحاكم الشرعية من قضاة وغيرهم (٢٣٪). يليهم في المرتبة منسوبوا مدارس البنين (٣٠٪). ثم منسوبوا الشرط ورجال الأمن (٣١٪).

جدول (٢) الوعي بالعنف ضد المرأة

	العبارة	موافق	غير موافق
١	العنف ضد المرأة يمثل ظاهرة منتشرة بشكل واسع في المملكة	٪٤٩,٢	٪٤٠,٥
٢	قضية العنف ضد المرأة مضخمة إعلامياً	٪٣٣,٩	٪٣٩,٢
٣	الحالات الحقيقية للعنف ضد المرأة أكثر مما يظهر على السطح	٪٦٠,٣	٪١٦,٤
٤	العنف ضد المرأة موجود في المملكة	٪٧٠,٧	٪١٧,٧
٥	استطيع التمييز بين المرأة المتعرضة للعنف وبين من وقع لها حادث عرضي	٪٥٨,١	٪١١,٨
٦	هناك حاجة لوجود نظام لحماية المرأة من الإيذاء	٦٧,٨	٪٢١,٧
٧	المملكة لديها من الأنظمة ما يكفل حماية المرأة من العنف والإيذاء	٪٤٢,٨	٪٣١,٣
٨	معظم النساء يتعرضن للإيذاء من قبل الأزواج	٪٦٤,٩	٪٢٢,٣
٩	المرأة المتعرضة للإيذاء تحتاج لحماية	٪٨٨,٥	٪٤,٥
١٠	هناك أجهزة في الدولة معنية بحماية المرأة من الإيذاء	٪٤٢,٨	٪٢٢,٩
١١	الجهود المبذولة حالياً لحماية المرأة من الإيذاء كافية	٪٣٠,٤	٪٤٥,٢
١٢	يجب أن يعاقب من يقوم بالاعتداء على النساء	٪٩٢,١	٪٣,٧

المجموع في كل سطر لا يساوي ١٠٠٪ لأنه تم حذف نسب إجابات (لا أدري) و(بيانات مفقودة)

يقصد بالمملكة – المملكة العربية السعودية

ثانياً: الاحتياجات التدريبية:

- ٩٧٪ من عينة الدراسة لم يحصلوا علي أي تدريب في مجالي العنف الأسري والعنف ضد الأطفال. بينما ٣٪ فقط من عينة الدراسة حصلوا على تدريب (أنظر رسم بياني (١)).
- ٦٩٪ من عينة الدراسة أبدوا الرغبة في حضور دورات تدريبية في مجالي العنف الأسري والعنف ضد الأطفال. بينما بقية عينة الدراسة لم تبد اهتمام بذلك.
- أظهرت الدراسة تشتت في آراء عينة الدراسة حول طول مدة التدريب المرغوبة. حيث يفضل (٢١٪) أن تكون أسبوع. و (١٤٪) يفضل أن تكون المدة ثلاثة أيام. أما باقي العينة فتوزعت على يوم. يومين. واربعة أيام (٧٪. ٥٪. و ٤٪ على التوالي). وهناك من يفضل أن يستمر التدريب لمدة شهر (١٢٪) وبقية العينة لم تحدد مدة التدريب.
- ١٤٪ من عينة الدراسة قالت أنها تفضل طريقة نقاش المجموعات. و (١٤٪) المحاضرة و (٩٪) دراسة حالة و (٣٪) فقط تفضل طريقة العرض. هذا وقد اختار (٢٩٪) من عينة الدراسة طرق مختلفة للتدريب. بينما باقي أفراد العينة لم يجيبوا على السؤال. (أنظر رسم بياني (٢)).
- ٢٢٪ من عينة الدراسة تفضل أن يكون للدربون خليط من النساء والرجال. وأكد (١٧٪) من عينة الدراسة أنه لا يهم جنس المدرب. (١٨٪) يفضلون أن يكون للدرب رجل فقط , (١٣٪) يفضلون أن يكون للدرب امرأة فقط (أنظر رسم بياني (٣)).

ثالثاً: الإجراءات المتبعة حول كيفية التعامل مع حالات العنف الأسري والعنف ضد الأطفال:

بشكل عام أظهرت الدراسة تشتت واضح لدي العينة فيما يخص وجود مصادر رسمية لإجراءات التعامل مع حالات العنف الأسري والعنف ضد الأطفال.

- من ١١١٤(٢٢٪) فقط من عينة الدراسة أكدوا وجود إجراءات في أماكن عملهم بينما ٧٧٪ أفادوا بعدم وجود تلك الإجراءات أو أنهم لا يعرفون إن كانت تلك الإجراءات موجودة أم لا في أماكن عملهم (أنظر رسم بياني (٤)).
- ومن الـ ١١١٤ (٢٢٪) الذين أفادوا بوجود تلك الإجراءات (٥٣٪) قالوا أنهم اطلعوا على تلك الإجراءات مقابل (٤٦٪) لم يطلعوا عليها.
- كما تبين من إجابات ال ١١١٤ (٢٢٪) الذين أفادوا بوجود إجراءات للتعامل مع حالات العنف الأسري والعنف ضد الأطفال في أماكن عملهم أن (٤١٪) منهم طبقوا هذه الإجراءات و(٦٨٪) يرون قابلية تطبيق هذه الإجراءات كما رأى (٤٣٪) من عينة الدراسة أن هذه الإجراءات شاملة.

الجهات التي كان لديها إحصاءات عن حالات العنف الأسري والعنف ضد الأطفال و قدمتها للدراسة:

معظم الجهات المختارة لم تتوفر لديها إحصائيات لو لم تشأ اطلاع الباحثين عليها باستثناء الجهات التالية:

- برنامج الأمان الأسري الوطني.
- مستشفى الملك فيصل التخصصي للأبحاث.
- وزارة الشؤون الاجتماعية.

الجهات التي أفادت أن لديها إجراءات خاصة بالتعامل مع حالات العنف الأسري والعنف ضد الأطفال وقدمتها للدراسة هي:

و فيما يتعلق بالإجراءات الخاصة بالتعامل مع حالات العنف الأسري والعنف ضد الأطفال أفادت معظم الجهات بأنه لا تتوافر لديها إجراءات للتعامل مع هكذا حالات باستثناء الجهات التالية:

- برنامج الأمان الأسري الوطني.
- مستشفى الملك فيصل التخصصي للأبحاث.
- وزارة الشؤون الاجتماعية.
- وزارة الصحة.

المصدر لجميع هذه الإحصائيات: (برنامج الأمان الأسري الوطني)

سواء عن طريق الإعلام..

أو بالطرق السهلة عن طريق المدارس وغيرها من الجهات..

سمعتُ عن الحالات التي لم تستفد بشكل واضح من الأنظمة..

هذا ما يجعل المحرِّضين ينجحون بسهولة..

في استغلال التقصير الحاصل والأخطاء، وحتى الثغرات الموجودة..

للتسلل إلى عواطف المتضررين، والتلاعب بها..

فأنا مثالٌ حيٌّ لذلك..

نجحَ من وثقتُ به في تحذيري من الذهاب إلى الجهات المعنية مستشهداً بالكثير من الحالات المنتشرة في إعلامنا المحلي..

والتي جعلتني بعد مشاهدتها للأسف..

أعتقدُ.. بأنَّ تحذيره لي، كانَ صحيحاً وواقعياً ..

لا أنسى اجتهاد ضابط مركز الشرطة معي، عندما أخبرته بوضوح عن اعتداء أخي مازن.. حيث أعادني إلى المنزل مع أهلي، بعدما اكتفى بأخذ تعهد فقط على أخي..

و نجا هوَ من العقاب بكل سهولة!

هذه التراكمات كلّها.. أوصلتْني إلى هذه القناعة للأسف..

أخبرتني سهى عن رصدها لكثير من الحالات..

حيث كانت تخبرني، وتتساءل أمامي مرددة..

كم من القصص التي ظهرت في الإعلام، لم ينجُ أبطالها من التعنيف الأسري، حتى بعد وصول شكواهم؟!

كم من القصص التي أفلتَ فيها المعتدون من جزاء العقاب؟!

كم من القصص التي ظهر في الإعلام ضحاياها من الفتيات اللواتي تجرعنَ القهر حتى في دار الرعاية الاجتماعية، بسبب مزاجية بعض الموظفات، أو بعض الموظفين!

ثم واصلت سهى، وهي تخبرني قائلة:

- هناك قرارات مهمة اتخذتها الدولة مؤخراً.. ودعمتْ فيها التحرك ضد جميع التجاوزات المحزنة، التي يرتكبُها بعض أولياء الأمور.. وحتى من قبل بعض الموظفين المقصرين.. وخصصتْ أيضاً لها الأماكن والآليات الحازمة الرادعة.. وكل شيء ممكن.. لكن هناك مشكلة واضحة في التنفيذ وفي التعاطي مع الحالات.. وهذا للأسف ما يبعثر كل الجهود.. ومتأكدة أنه سيتم إصلاح الخلل قريباً.. وهذا ما ألاحظه كمهتمة ومتابعة لكل جديد يبعث التفاؤل في ملف الحقوق.

سألتُها سؤالاً شغلني، بعد حديثها المفيد..

لأنني كنتُ أتذكر طبيعة عائلتي غير السوية، وخصوصاً والدتي..

والتي كانت تقدّس ذكورة مازن.. وتسمح له بالتمادي في ظلمنا..

فوجدتُ نفسي أسألها:

- هل تثقينَ بإمكانية بلادنا في ضبط التجاوزات العائلية يا سهى؟.. خصوصاً أن الكثير من عائلاتنا اعتادتْ على طريقة معينة في التربية والتعامل مع أفراد الأسرة، وبالذات مع الإناث.

أجابتني إجابة معقدة بعض الشيء، لكنني فهمتها فيما بعد..

حيث قالت لي:

- المسألة ليست قوانين فقط تضعها الدولة.. بل هي مسألة تقبل المجتمعات العربية والإسلامية لها، ومعرفة سبب وضعها.. فالبعض ينظرون إلى حقوق المرأة.. بأنها حقوق مطلقة لا حصر لها.. والبعض يرفضون تلك النزعة المتحررة كما يسمونها.. ولا يقبلون حتى مناقشتها.. الدولة قد تضع القوانين لكل شيء، ويمكنها مراقبة تنفيذها بشكلها الصحيح.. ولكنها لا تستطيع فرض تطبيقها داخل كواليس الأسرة.. هذا هو الشيء الذي لا تستطيع المنظمات الحقوقية الأجنبية أن تفهمه.. أو ربما أنها تفهمه.. ولكنها تستخدم ذلك كورقة لتنفيذ مصالحها!

صمت بعض الوقت وأنا انظر إليها.. وقلت:

- ما الحل يا سهى مع العائلات؟

فأجابتني بكل وضوح وإيمان قائلة:

- الزمن وحده كفيل بإحداث التغيير ودعم خطواته تدريجياً.. أنها مسألة وقت يا سارة.. وكل ما يحدث اليوم.. ما هو إلا دليل على ذلك.

دقائق في المتجر..

كانت كفيلة بأن تعلمني الكثير..

تعلمت من هذه الفتاة بأنه يمكن أن نوصل صوتنا في الداخل..

بالطرق السليمة والهادفة إلى التقويم والإصلاح..

من دون الحاجة إلى البقاء في الخارج..

ففي الداخل يمكننا الاستمتاع إلى بعضنا بحب ووضوح..

بعيداً عن الصراخ والاستفزاز من الخارج!

ودَّعتها، بعدما تبادلنا أرقام هواتفنا..

شعورٌ لطيف شعرتهُ تجاه سهى.. فقد كانت مثالاً للفتاة السعودية المدركة لما حولها.. تعرفُ كيف تتحدث؟ وكيف تطالب؟..

من دون الوقوع ضحية التشويش أو الابتزاز أو الاستمالة العاطفية.

يُقال..

إنَّ النهايات الصادمة.. لا تُعلن عن موعد حضورها..

هي تأتي بغتةً.. تشبه حضور الموت.. ولكن على هيئة حياة!!

لقد أتى اليوم المفصلي في هذه المغامرة السيئة جداً..

حضرَ.. وليته لم يحضر!

اتصلت بي هاجر صباحاً لتخبرني.. خبراً أفرحني في بدايته فقط!

حيث قالت:

- ساااارة.. لقد تمَّ التوصل إلى قاتل فادي، والقبض عليه.

كدتُ أن أطير من الفرحة التي حلتْ عليّ..

لا بدَّ للعدالة وأن تأخذ مجراها.. حتى وإن تأخرتْ بعض الشيء..

الآن سوف ينام فادي في قبره، وهو مرتاحٌ تماماً..

ولكن من سخرية القدر في هذه الحياة غير العادلة..

أنَّ الميت.. يجد راحتهُ في قبره..

والحيّ قد تبدأ رحلة موته في حياته التي يعيشها!

واصلت هاجر حديثها، وهي مترددة بأن تكمل:

- صور القاتل تم نشرُها في وسائل الإعلام قبل قليل.

- يستحق ذلك على جريمته البشعة.

- سارة.. إنهُ جمال!

لم أستوعب ذكر هذا الاسم أثناء مكالمتنا..

كاد أن يُغمى عليّ.. فسألتُها سؤالَ العاجز:

- أي جمال؟!!

- أخبرتكِ إنهُ شخص سيء جداً، ولا يستحق هدر وقتكِ..

لم أكمل المكالمة.. سقطتُ أرضاً من دون أن أشعر..

بعض المشاعر المؤلمة.. لا يمكن وصفها، ولا حتى الكتابة عنها..

كنتُ أرى الموت حينها، وهو يرفض الاقتراب مني!

كأنه يتعمد أن يستنزف كل قواي، من دون أن يتخذ قراره..

عادت هاجر للاتصال بي.. لكنني لم أدرك شيئاً من حولي..

ما لاحظتهُ أنني لم أكن أبكي!

يبدو أنَّ الصدمة تفوق كثيراً حدوث ردة فعل كالبكاء..

اتصلتُ مباشرة ببيانكا.. لم تكن تجيب..

تكرَّر اتصالي قرابة عشر مرات.. ولم تجبْ أيضاً..

ارتديتُ ما وقعت عيناي عليه من ملابسي، وكذلك غطاء رأسي..

توجهتُ مسرعة وأنا سارحة البال..

استوقفت سيارة أجرة.. ثم ذهبتُ إلى مكتبها فوراً..

وصلتُ، وكدتُ أنسى إعطاء السائق أجرته..

صعدتُ إلى المكتب مسرعة..

أريد أن أرى بيانكا؛ حتى أتأكد من الخبر المنتشر فقط..

دخلتُ بسرعة، فرضت السكرتيرة السماح برؤية بيانكا؛ بحجة وجود ضيف لديها..

لكني لم أعرها أي اهتمام، ودفعتُها ودخلتُ إلى المكتب مندفعة..

كانت بيانكا تقف خلف المكتب ممسكة ببعض الأوراق..

بينما كانت تقف أمامها.. هاجر!!

نظرتا إليّ بدهشة مفرطة، غير متوقعتين حضوري..

صدمة لم أفهم توقيتها ولا أسبابها!.. ماذا تفعل هاجر هنا؟

بادرت بيانكا بالحديث متداركة الموقف:

- أهلا سارة، يا لها من مفاجأة.. تفضلي..

سألتها مباشرة، وأنا أنظر إلى هاجر:

- ماذا تفعل هاجر في مكتبكِ؟

- لديها بعض الاستفسارات القانونية.. أعلم أنها صديقتكِ.

نظرتُ إلى هاجر، وسألتها:

- استفسارات!.. ألم نكن نتحدث قبل قليل عن موضوع كارثي؟ لماذا لم تخبريني أنكِ ستأتين إلى هنا؟!

وقبل أن تفتح فمها بكلمة واحدة.. اقتربتُ من المكتب..

ثم وجهتُ سؤالي الذي يشغلني إلى بيانكا:

- أخبرتني هاجر بأن جمال قد تم القبض عليه.. بتهمة القتل الشهيرة، التي شغلت الشارع الكندي مؤخراً.. هل هذا صحيح؟

وبكل برود أجابتني، وهي حادة الملامح:

- أجل.. لقد وقع في شرّ أعماله.. يستحق العقاب.

هبطتُ بجسدي على الكرسي الذي كان خلفي..

وهبطتْ أحلامي من قبلي نحو الهاوية، والتي لطالما تربصت بي..

قمتُ بإزاحة الحجاب؛ كي أخفف من شدة الحرارة المتزايدة..
وحتى تلك اللحظة، لم أبكِ بعد.. لم تتحمل هاجر منظري..
فغادرت مسرعة، من دون أن تتفوه بكلمة!
تمنيتُ لو أنَّ ما أمر به مجرد كابوس مزعج، ينتهي فور
استيقاظي.. سألتها كالتائهة:

- مستحيييل.. جمال الذي أعرفه، لا يقدم على فظاعة كهذه.
- أنتِ لا تعرفين جمال الحقيقي.. تعرفين جمال الافتراضي.. علاقتكِ معه كانت على مواقع التواصل الاجتماعي فقط.. ومثل هذه العلاقات، لا تكشف إلَّا نسبة بسيطة من الحقيقة.
- ما الذي تقصدينه؟
- انسي جمال وتأقلمي.. تنتظركِ حياة أفضل بكثير.

ما الذي تقوله هذه المجنونة؟.. أليس جمال صديقها؟!
لم أشعر أنها تعيش صدمة الخبر.. لم يكن هناك ما يحزنها إطلاقاً!
ثم واصلتْ حديثها:

- لا تصدقي حبه لكِ.. هو يبحث عن مصلحته فقط.. جمال لا يليق بكِ.. ولن يحدث زواجٌ بينكما أبداً.. قد يكون تعلقَ

بكِ فعلاً.. لكنه شعور طبيعي يشعر به أصحاب الميول المثلية جميعهم.

صدمة غير متوقعة، كشفتها لي هذه الحقيرة!..

ثار غضبي، وشعرت بدوار يباغتني.. صدمات تلو الصدمات..

ولكني أجدُني ما زلتُ أقوى على التنفس!

سألتها عن الذي تقصدهُ بحدثيها..

وأخبرتني بتفاصيل نزلت عليّ كالصاعقة.. لا تتحملها فتاة بسيطة..

كشفت لي حقيقة جمال الجنسية.. حاولتُ إخراسها، لكنها أحضرت هاتفها، وجعلتني أشاهد الأخبار المتناقلة عن الحادثة..

كانت صور جمال، وهو في قبضة رجال الأمن..

ثم أرسلتها إلى هاتفي، وطلبت مني أن أذهب إلى أي شخص كي يترجم لي ما كُتب عن الخبر..

حيث قالت مختصرة ما هو مكتوب:

- لقد قام جمال باستدراج فادي، بعد خلاف حاد في علاقتهما العاطفية.. فكانت الليلة الأخيرة.. قضى معه ليلة ثم قتله.

لم أستوعب حجم بشاعة الكلمات التي تتناقلها وسائل الإعلام بحق جمال.. الشخص الذي أحببتهُ وقدمته على أهلي ووطني!

لا بدَّ أنهم يكذبون.. كيف تطلب مني بيانكا تصديق ذلك..

سألتُها والدموع بدأت تتجمع في عينيّ:

- ولماذا أقدمَ على قتله؟ هل يستحق خلافهما هذه النهاية؟!

- سارة.. أنتِ اخترتِ الشخص الخطأ.. أو ربما قلبكِ الذي اختاره للأسف.. هل تذكرين حادثة الاقتحام المسلح للمقهى، الذي كنتِ موجودة فيه أنت وجمال؟

- وكيف لي أن أنسى حدثاً كهذا.. ولكن ما شأنه بحديثنا؟

- جمال كان مديناً بالمال لعصابة مخدرات خطيرة هنا.. كان يتهرب من تسديد دينه من دون مبرر.. في ذلك اليوم التقى هو بفادي، عندما أتى لكي يصحبكِ من المعهد.. أليس كذلك؟

- صحيح.. أكملي!

- اكتشفَ بعد نجاته من القتل.. أنه هو المستهدف في تلك العملية.. وأن فادي قد قام بتتبع خطاكما، حتى تأكد من وجودكما في المقهى.. ثم أبلغ بعض من كان يعرفهم من أعضاء تلك العصابة.. وحدث ما حدث.. وعليه اختارَ جمال الانتقام من فادي.

دودة الكتب طايبة

قلت لها وأنا أرتجف واحاول التماسك بصعوبة:

- لا أصدقكِ، ولا أصدق الإعلام.. جمال بريء.

- بالمناسبة.. هل سألتِ نفسكِ كيف وصل شقيقكِ مازن إلى عنوان مسكنكِ بكل تلكَ السهولة؟

أكادُ أجنُّ من تتابع سردها للحقائق الصادمة.. قلتُ لها عاجزة:

- كفاكِ تجبراً وأحاديثاً كالسم.

- عندما شعرَ جمال بأنه قد اقتربَ من خسارة حريته بسبب فعلته الشنيعة.. تواصل معي طالباً حصته من المال للأعمال التي كانت بيننا.. ولكنني رفضتُ وطلبتُ منه الانتظار.. فهددني ونفذ تهديدهُ.. اختار أن يضحي بكِ.. وذلك بأن يفسد عليّ مجهودي معكِ.. فتواصلَ مع شقيقكِ بطريقته الخاصة.. وأخبرهُ بموقع سكنكِ.. كان يعتقد أنه بفعلته هذه.. سوف يجعلني أخسركِ ككنز.. ولكني انتقمتُ منه بإرشاد الشرطة إلى الأماكن التي يرتادها دوماً.. فقبضوا عليه بسهولة.

واصلت تكذبيها ومحاولة الدفاع عن جمال..

ولكنها أخبرتني بأن الدليل الذي أثبت التهمة على جمال استحالة أن يخرجه من هذه الورطة!

لقد عثر رجال الشرطة على آثار تحت أظافر الضحية فادي..
أثبتت بعد فحصها.. بأنها تطابق جلد جمال تماماً..
حصل ذلك كما يُعتقد أثناء مقاومة الضحية للقاتل قبل أن يقتلها!
وعليه.. لا مجال للإنكار.. لقد قُضي الأمر للأسف..

حينها.. لم أقوى على التماسك أكثر..
فذرفتُ دموعي عاجزة..
بكيتُ بأعلى صوت ممكن أن تبكيه فتاة مقهورة..
لا أعلم إن كان عليّ تصديق كل هذا.. أم رفضه؟..
ولكنني كنتُ أضعف من أن أدافع وأحلل وأجادل..
حينها.. توالتْ على ذاكرتي المواقف التي قد وقعت بيننا..
لم يكن جمال يبحث عني، ولا يُظهر لي عواطفهُ إلا بالكلام!
تذكرتُ ملامحه.. ملابسهُ الضيقة.. أسلوب حديثه..
تناقضاته.. غيابه.. حتى رفضه للاعتراف بعلاقتنا..
فهمتُ حينها لماذا سخر منه الحضور في تلك الليلة في الفيلا..
عندما علموا أنني قد هربتُ؛ من أجل الارتباط به!

موقع الكتب

كانوا يعلمون حقيقة ميوله.. وفهمتُ لماذا غضب جمال حينها..

تذكرتُ أيضاً.. حديث الفتاة السعودية التي اسمها فاطمة..

حين حذّرتني في تلك الليلة بطريقة غريبة..

عندما قدمتْ لي نصيحة لم أدرك معناها.. إلا هذا اليوم..

إذ قالت لي:

"في كندا.. يمكنك فعل كل شيء.. سوى الحب!"

والكثير الكثير من الأمور، والتي توافدت على ذاكرتي المنهكة..

ألهذهِ الدرجة لم أكن أشعر بما يحدث حولي وخلفي؟!

هل خسرتُ جمال بهذه السهولة؟

للأسف.. الحياة الحقيقية لا تشبه الحياة الافتراضية إطلاقاً..

جمال في العالم الافتراضي.. أجمل بكثير من الذي في العالم الحقيقي!

لم أخسره فحسب.. لقد خسرتُ حياتي كلها!

الخيبات.. هي ذلك الشعور الذي يأتيك بعد زمن..

ويجعلك على يقين بأن كل البناء الذي كنت تعتقد بقوة أساسه..

هو في الحقيقة هش.. هشاشته أشبه بحقيقة السحاب!!

دوحة الكتب طارق

طلبتُ منها أن توصلني إلى جمال..

ولكنها أخبرتني بخطورة الأمر.. لأنني سأتعرض حينها للتحقيق..

طلبتْ مني أن أتريث، حتى تبدأ محاكمته..

وهل يمكنني أن أتحلى بالمزيد من الصبر؟!

تساءلتُ بصوت مرتفع وأنا أبكي.. إلى أين سأذهب الآن..

ماذا سأفعل هنا في كندا.. فقدتُ نفسي قبل أي شيء..

تمنيتُ لو ألتقي والدتي.. وأختي فرح..

أريدُ أن أغرق في حضنهما، حتى وإن تعرضتُ للشتم وللضرب..

أريد عائلتي فقط.. ولا شيء آخر..

لا أعلم إن كان ما أشعر به تجاه جمال.. يسمَّى حباً..

أو تعلقاً فقط.. الحقيقة التي رفضتُ أن أصارح نفسي بها..

وتأخرتُ كثيراً في مواجهتها..

إنَّ جمال لم يُشعرني يوماً أنه يحبني!

كلماته معي لطيفة.. ولكنها ليست عميقة..

كلمات قد يقولها لأية فتاة جميلة..

للأسف، كنتُ أنا الطرف المندفع.. المتفاعل بسرعة..

حوحة الكتب حلب

ربما حصلَ ذلك معي بسبب الفراغ الذي أوجدهُ والداي لي..

لم أشعر يوماً بمعنى الحنان.. بمعنى كلمة الأمان..

لم أسمع أية إشادة بخصوص تسريحة شعري، في يوم من الأيام..

أو بخصوص أية قطعة لباس جديدة ارتديتُها!

حتى أخي.. لم يُشعرني يوماً أنني أعني له شيئاً..

كل ما فقدتهُ، وجدته في جمال..

ولطالما تساءلتُ بيني وبين نفسي..

ماذا لو وجدتُ كل ما أحتاجهُ في أسرتي الصغيرة..

هل كان لجمال أو لغيره موضعٌ قدم في حياتي؟

طلبتْ مني بيانكا أن أبقى في مكتبها، وأن أنام هنا..

ولكني رفضت.. فأصرت عليّ أن توصلني إلى مقر سكني..

يبدو أنها تخشى أن تبدر مني ردة فعل لا تعجبها..

وصلتُ إلى غرفتي.. أصبحتُ أكرهها، ولا أطيق رائحتها..

حاولتُ التوصل إلى هاجر.. ولكني فشلت.. كانت تتجاهلني..

بقيتُ كأنني في عزاء، ولكن لوحدي.. أنتظر الفرج صامتة..

موقع الكتب

حتى طرأ علي خاطري ذكر الفتاة السعودية سهى!

يبدو أنها آخر أبواب الأمل.. تواصلتُ معها، وتجاوبتْ بسهولة..

أخبرتها أنني أرغب في مقابلتها فوراً..

حاولتْ التعذر بأدب، لأنها تعلم بأن اللقاء بي يعدُّ لقاءً مشبوهاً..

ولكنها رضختْ لتوسلاتي؛ بعدما وجدتني مصرة وبقوة..

أعطتني عنواناً لأحد المقاهي الشهيرة..

سوف نلتقي في الساعة الخامسة عصراً..

ذهبتُ إلى الموقع المتفق عليه، قبل التوقيت بساعة كاملة..

بقيتُ أنتظرها متوترة.. حتى ظهرتْ، وتنفستُ الصعداء بعدها..

لاحظتْ احمرار عينيَّ، وحالتي السيئة..

فتساءلتْ بعدما تصافحنا وجلسنا مباشرة.. قائلةً:

- ما خطبكِ يا سارة؟.. تغيرتْ ملامحكِ كثيراً!

لم أقوَ على الصبر، ولا على التمهيد..

وجدتُ نفسي أندفع في الحديث.. فأخبرتُها عن كل شيء حدث معي.. منذ هروبي من مدينتي الرياض..

ومروراً بكوبنهاجن.. ثم وصولي إلى تورونتو..

انتهاءً بلقائي بها، في هذه اللحظة..

صدُمتْ سهى من هذه التفاصيل.. ولم تتوقعْها أبداً..

فقالت مندهشة وغير مصدقة:

- هل يُعقل بأن سارة الفتاة القوية المناضلة كما اشتُهرت في فضاء تويتر.. هي التي تجلسُ الآن أمامي بهذه الحالة؟

أخبرتُها بتفاصيل التفاصيل.. ثم سألتني:

- وما الذي تريدينهُ مني؟ ماذا تنتظرين أن أفعل؟

- أريدُ مساعدتكِ.. فتاة مثلكِ مثقفة وواعية، بالتأكيد أنها تعرف كيف يجب أن أتصرف.. لا أريد سوى العودة إلى بلادي.

فرحتْ سهى كثيراً بقراري هذا.. وأيَّدت تصرفي وبقوة..

فطلبتْ مني الهدوء.. وبدأتْ بالتفكير معي.. أخبرتني قائلة:

- لا حلَّ أمامكِ سوى التواصل مع سفارة بلادنا.

اعترفتُ لها بأنني أخشى ذلك كثيراً.. حيث قلت:

- سوف يقبضونَ عليّ فوراً..

- من أخبركِ ذلك؟

- جمال.

- جمال مرة أخرى؟ إنهُ يكذب كغيره.. سأكون بجانبكِ كشاهدة.. لا تقلقي أبداً.

طمأنتني كثيراً..
ووعدتني أنها ستأتي إلى سكني، عند الساعة التاسعة صباحاً..
كي تصحبني لمقابلة شخص من أقاربها، يعمل في سفارة بلادنا..
تثق فيه كثيراً.. ويتفهم طبيعة حالات مثل حالتي..
لديه الكثير من الأصدقاء هناك.. ولن يتأخروا عن إنقاذي أبداً..
كلماتُها كانت كالبلسم.. على الرغم من القلق الذي يُداخلني..
دَعتْني لشرب كوب قهوة..
لكنني رفضتُ ذلك، وأخبرتُها أنني أحتاج إلى الراحة والنوم..
ثم ودَّعتني على أمل اللقاء غداً..

عندما عدتُ..
وجدتُ هاجر تنتظرني في الداخل، عند مكتب الاستقبال..
لم أكرهْ رؤيتها أكثر من هذه المرة.. لاحظتْ غضب ملامحي..
فطلبتْ مني الهدوء، قبل أن أتفوه بأية كلمة.. ثم قالت:

- أنا هنا دون أن يعلم أحد.. احذري من بيانكا يا سارة.. هيَ تراقب تحركاتكِ.. صدقيني لا أعلم شيئاً عن التفاصيل.. كوني حذره فقط.. ولا تتصرفي تصرفاً متهوراً.
- وما علاقتكِ ببيانكا؟ هيا اكشفي عن حقيقتكِ.
- ستعرفين كل شيء قريباً.
- لن تجديني.. سأعود إلى بلادي قريباً.
- احذري يا سارة أن تقدمي على شيء كهذا.. إلى اللقاء.

ثم غادرتْ، وهي تتلفّت يميناً ويساراً..

شعرتُ أنني أخطأتُ بإخبارها..

لكن لم يعد يهمني شيءٌ بعد اليوم..

فلن يكون هناك أتعس مما حصل..

مرت تلك الليلة بصعوبة.. أنا لم أنم على الإطلاق!

والتقيتُ مع سهى صباحاً أمام زاوية الاستقبال..

كان وجهي شاحباً.. وعيناي تكادان تتفجران من احمرارهما..

سألتْني بعد أن صافحتني:

- هل نمتِ جيداً؟

- لن أنام حتى أعرف مصيري.

وقبل أن نتوجه إلى سيارتها.. كان موظف الاستقبال يبتسم لنا..

فوقع في قلبي الشك!

تذكرت استعانتي بهاجر كي تترجم لي إجابته حول شكي في بيانكا

فقررت أن أكرر ذلك السؤال.. ولكن هذه المرة مع سهى..

شعور غريب انتابني فجأة جعلني أقدم على ذلك!

فطلبت منها أن تسأله عن حادثة اقتحام أخي مازن لغرفتي..

ومن ثم وصول بيانكا فوراً من دون أن أخبرها..

وفعلاً.. سألته سهى وترجمت الإجابة.. كانت صادمة!!

أخبرها الرجل أنه لم يتصل بأحد على الإطلاق..

لم يتصل سوى على الشرطة!

ثم أضاف مستغرباً كما أخبرني سهى مترجمة لحديثه:

- ألم تسأليني نفس السؤال من قبل.. برفقة صديقتكِ التي تشاركِ السكن؟

صديقتي التي تشاركني السكن؟!

ما الذي يقوله هذا المعتوه؟!

استفسرت سهى من الموظف عن تفاصيل ما يقوله..
وأخبرها بأن تلك الفتاة السمراء..
تأتي على فترات متقطعة وتدخل إلى غرفتي ثم تغادر..
بيانكا هي من طلبت منه أن يسلمها نسخة من المفتاح..
بعد أن أبلغته بأنها ستكون شريكتي في الغرفة لفترة معينة..
للأسف.. يقصد بالفتاة السمراء.. صديقتي هاجر!
ثم توقف عن الحديث قبل أن يتساءل مستغرباً عن سبب أسئلتنا!
لم استوعب هذه الإجابات الصادمة!!
لقد كان الشك الذي يراودني في محله للأسف..
هناك من أخبر بيانكا عن اقتحام مازن.. بالتأكيد أنها هاجر..
لكن السؤال.. لماذا تعمدت إخفاء الحقيقة عني؟
مستغلة جهلي باللغة.. والأهم.. استغلت ثقتي المفرطة بها..
ولماذا تملك نسخة من مفتاح غرفتي؟!
لم أعد أفهم أي شيء.. لقد تمكن الصداع من رأسي..
غادرنا ولا تزال كل تلك الأسئلة تتلاعب بي كالأمواج المستفزة..
أرادتْ سهى أن نتوقف من أجل تناول الإفطار..

ولكنني رفضتُ.. فلا شهية عندي لأي شيء..
وصلنا إلى مقر سكنها.. حيث كان ينتظرنا قريبها أمام المبنى..
رحَّب بي وبادلتهُ الترحيب.. ثم تبعْنا سهى إلى الداخل..
قدمتْ لنا الشاي.. وبدأنا في الحديث مباشرة..

قال لي:

- في البداية، يجب ألَّا تقلقي يا سارة.. ثقي بي.. لقد أخبرتني سهى عن قصتكِ، ولم أستوعب تفاصيلها.. أريد أن أسمع منكِ.

وبالفعل، تحدثتُ بحماس، وأخبرتهُ عن كل شيء..
أجبتهُ عن كل سؤال سألهُ، دون تردد أو خجل..
فمنْ يبحث عن الخلاص.. لن يعرف إحساس التردد!

تحدثَ معي بطريقة مبسطة..
كان يحدثني كالأخ.. تمنيتُ فعلاً لو كانَ لديّ أخٌ مثله..
أخبرني بأنه في بلدٍ مثل.. كندا.. هناك مشاكل أسرية..
وقضايا عنف.. مثلها مثل أي بلد آخر في العالم..

حتى الفقر والجرائم وكل شيء.. ولكن شهرتهم أتت من استقبال اللاجئين أو الهاربين من بلدانهم، لأسباب متنوعة..

ومن إقرارهم للكثير من القوانين، التي تدعم حفظ الحقوق..

مما جعلهم يستغلون تلك المزايا، ويقدّمون أنفسهم كمنقذين..

واصلَ حديثه وسط تأييد قريبته سهى لكل ما يقول..

لكنْ ما لفتَ نظري في حديثه، والذي لم أنسهُ حتى يومي هذا..

أنه كانت لديه قناعة، بخصوص استهداف المواطنين السعوديين تحديداً..

سبب اختيارهم لبلادنا بالتحديد.. ويقصد هنا بعض الدول الغربية.. وبعض الذين يصنفون أنفسهم كحقوقيين.. ويعيشون في الخارج..

ليس من أجل الدفاع عن الحقوق والمطالبة بها، كما ينشر أغلبهم..

بل للبحث عن شهرة؛ تخدم مصالحهم في مجالات عملهم..

كزيادة عدد المتابعين، والحصول على فرصة للابتزاز..

أو كسباً للشهرة في مجال المحاماة، ومن ثم جذب المراجعين أو فقط نكايةً ببلادنا؛ بسبب ميولهم السياسية المتطرفة والمعادية..

من خلال حديثه شعرتُ كما لو أنه يتحدث عن الكندية بيانكا فعلاً..

والذي أخبرني بأن هناك العشرات والعشرات من أمثالها في كندا!

ثم ضرب لي مثالاً، يخص متاجرتهم في قضايانا..

وكيف كانوا يستخدمون أي متطرف يحمل الجنسية السعودية..

في حملاتهم المسيئة للشعب كاملاً!

وكيفَ يقدّمون ذلك على أنه نتاج التشدد الذي تدعمهُ حكومتنا!

حتى أصبحوا يفرحون بهروب الشباب، وبانضمامهم إلى الجماعات المتطرفة.. هم يعلمون أن التعميم على الشعب بكاملهِ غير صحيح..

ولكنهم يعلمون أيضاً.. بأن حملات كهذه.. كفيلة بالانتشار إعلاميا!

أما اليوم.. وبعد التغييرات الكبيرة التي حدثت في بلادنا..

وبعد محاربة منابع التطرف بوضوح وبحزم.. واعترافنا بمشاكلنا وقيامنا بإعطاء الحقوق للمرأة.. بالتدريج وبطريقة عقلانية وذكية..

تجاهلوا فجأة الإرهابيين كلّهم.. وكأنهم انقرضوا!

ونفرغوا لمحاربة القرارات الحكومية، وللتقليل من شأنها!!
هم لا يبحثون عن الحقوق الإنسانية ونصرتها..
هم يبحثون عن القضايا الجديدة، التي تكون حديثَ الناس..
ومن ثم الضرب على وترها الحسَّاس؛ للإساءة فقط..
وليس هناك مناخ، وأرض خصبة لذلك.. سوى السعودية..

تحدثت سهى.. واتفقتْ معه في الرأي.. ثم أضافت قائلة:

- ما يجعلني أؤيِّد هذا الرأي وهذا التحليل.. هو السؤال الذي لم أجد له إجابة حتى الآن: لماذا يتركون مشاكل البلدان العربية، والظلم الموجود وهدر الحقوق فيها.. ويتفرغون لمشاكلنا الخاصة؟ على الرغم من أن استقرار حياتنا، أفضل بكثير من واقع حياة بعضهم!!

حوار دسم جداً..
كنتُ فيه الطرف الصامت والمتلقي..
كان لكلماتهما أثرٌ كبير في قلبي، وفي صقل شخصيتي فيما بعد..
طلبَ مني قريُبها بعض الأوراق: كصورة لجواز السفر وغيرها..

ووعدتهُ بأني سأسلّمها إلى سهى في أقرب فرصة..

ثم قال:

- السفارة تتابع موضوع شقيقكِ مازن، منذ أن دخل السجن.. والآن سأسعى لمساعدتكِ بالعودة في أقرب فرصة.. اتركي الأمر سراً بيننا.. لا تخبري أحداً.

تذكرتُ أنني أخبرتُ هاجر.. ولكنني تجاهلتُ ذلك ولم أبلغه..

عرضا عليَّ البقاء، وانتظار تناول وجبة الغداء..

لكنني رفضتُ ذلك؛ خوفاً من تلقي أي اتصال من بيانكا..

و أصرّيتُ على العودة وحدي، وقَبِلا ذلك بناءً على رغبتي..

وقبل مغادرتي..

كنت مترددة من التحدث.. فلاحظ ذلك قريب سهى..

هناك حقيقة تخبرنا..

بأنه من السهل أن نستمع إلى عقولنا..

ولكن من الصعب أن نتجاهل قلوبنا!

لذلك.. نظرت حينها إلى الأسفل، وأن في قمة الإحباط والحزن والضيق.. ثم سألته وأنا محرجة:

- أريد شيئاً واحداً.. أن اتأكد من حقيقة جمال كي لا أظلمه.

لم يجادلني أو يقدم النصائح.. بل على العكس..

تجاوب مع حزني وحيرتي.. واقترب مني ثم قام بفتح هاتفه حتى يطلعني على كل ما تتداوله الأخبار الرسمية وتؤكده..

وأخبرني عن ثبوت التهمة على جمال.. كما أخبرتني بيانكا تماماً..

شرح لي كل التفاصيل.. وسط نظرات سهى الحزينة من أجلي..

للأسف لقد تأكد كل شيء.. كاد الحزن أن يخلع قلبي حينها..

ولكن.. كان لا بد أن أكون قوية ولو لمرة واحدة..

أن أستجمع قواي.. وأتجاهل كل الخذلان الذي شوه ما بداخلي..

لم أكن أثق بأنني سوف أنجح في ذلك.. ولكن يجب أن أحاول..

كان كلُّ ما يهمني الآن، أن أجهز أوراقي جميعها، وأن أسلّمها..

كي نبدأ بإجراءات السفر مباشرة..

غادرت مقر سكن سهى..

وبينما أنا في طريقي إلى مسكني، برفقة سائق الأجرة..

تلقيتُ اتصالاً أرعبني!
كانت بيانكا.. سألتني عن مكاني.. وأخبرتُها بأنني أبحثُ عن مكان ما.. كي أتناول فيه إفطاراً متأخراً..
طلبتْ مني الحضور فوراً إلى مكتبها.. ثم أنهتْ المكالمة..
أخشى أنَّ هناك ما سوف يَقتل بدايات الأمل!
اضطررتُ لتغيير المسار.. مِن مسكني إلى مكتبها..
استقبلتني بعد وصولي، وطلبت مني الجلوس.. ثم قالت بخبث:
- اجتماع مثمر، ها؟.. ومتى تقررتْ رحلة عودتكِ إلى بلادكِ؟
شهقتُ، وكدتُ أن أختنق من الصدمة!..
قدمتْ لي الماء، وشربت وأنا في قمة رعبي، من نظراتها لي!
ثم أخبرتني بأنَّ هذا النوع من اللعب معها.. له ثمنٌ باهظ جداً..
لم تجعل أملي يكتمل.. أو يتشكل على الأقل..
نظرتُ إليها وأنا محبطة، والغضب يحركني.. وقلتُ:
- لا أصدق بأنَّ هاجر قد أخبرتكِ.. مستحيل أن تملك أخلاقَ وشهامةَ الكويتيين.. كيف تجرأت واستغنت عني بسهولة؟!
ضحكت ضحكاً هستيرياً، وأنا أنظر إليها مستغربة.. ثم قالت:
- هاجر.. كويتية؟! كم أنتِ مغفلة حقاً.

مغفلة؟ وما الخطأ في حديثي؟

هاجر صومالية الجنسية.. عاشت طفولتها في الكويت فقط..
وهي هنا تقيم في كندا برفقة عائلتها إقامة دائمة.

الحقيقة لقد ضحكتُ مثلها.. ما هذا الفيلم المزيف الذي أعيشه؟

كل شيء عشتهُ في كندا.. اكتشفتُ بعد فترة أنه كذبٌ!

أخبرتُها بأنني قد وصلتُ إلى آخر مراحل القدرة على التحمل..

وسأعود إلى بلدي.. ولكنها أخبرتني بوضوح:

- حتماً ستعودين.. لكن ليس الآن.. لن تفسدي عملي.
- وما شأني في عملكِ.. لا فائدة من بقائي هنا.. فقدتُ جمال..
وفقدتُ قبله عائلتي.. وفقدتُ نفسي.

وبينما كنتُ أواصل حديثي معها، وأنا غاضبة وأحاول إقناعها..

أدارتْ لي جهاز الحاسوب الذي كان أمامها..

كي أشاهد مقطع مصور قصير!

انقطعَ حديثي، وبقي فمي مفتوحاً.. أشاهد ما تعرضهُ لي وأنفاسي
تتصاعد بقوة.. لا أصدقُ هذه المشاهد..

مشاهد مصورة متنوعة، تخصني داخل غرفتي!

بعضها لي وحدي.. وبعضها برفقة جمال، عندما حضر إليّ..

والذي أفجعَني كثيراً.. مقاطع مصورة من داخلي حمامي الخاص!!

نظرتُ إليها وأنا مصدومة، دون أن أعلق تعليقاً واحداً..

وقالت لي، وهي عاقدة الحاجبين:

- أخبرتكِ بأنني سأسمح لكِ بالعودة، حالما أنتهي من عملي.. لا تتصرفي بحماقة.. كي لا أتصرف معكِ بصفاقة.. تخيلي لو وصلتْ هذه المشاهد إلى أهلكِ أو انتشرت؟ سوف تنامين هنا في المكتب لفترة محددة.. لا أريد جدالاً.

سألتُها، وأنا منهارة:

- كيف حصلتِ على هذه المشاهد، أيتها الحقيرة؟

- حقيرة، أفضل من أكون مغفلة.

بكيتُ حتى شعرتُ بطعم الدم في حلقي..

لقد أفسدتْ عليّ بوادر الفرحة، والأمل بإمكانية عودتي..

هذه اللعينة، لا تترك لي أية فرصة..

تمكّنني حتى من مجرد التفكير، أو التخطيط لأي شيء..

أخذتْ هاتفي.. وقامتْ بتبديل الشريحة بشريحة أخرى..
وحذفتْ الأرقام المخزَنة جميعها.. ثم أعادته إليَ..
حذّرتني من التواصل مع أي شخص مجدداً..
أمرتْ سكرتيرتها بأن تحضر لي وسادةً وفراشاً..
ووضعتهما في آخر المكتب، وأخبرتني بضرورة بقائي هنا بعض الوقت.. فبقيتُ جالسة هناك كالأسيرة العاجزة، لا أعلم ماذا ينتظرني..

شعرتُ أنني خذلتُ نفسي، وخذلتُ سهى وقريبها من قبلي..
كان يُفترض أن ألتقي بهما في اليوم التالي؛ كي أسلم لهما أوراقي..
أو على الأقل كي أتواصل معهما حتى أعتذر.. لا أن أختفي..
حزنتُ كثيراً، وكان الصمت حاضراً طوال وقتي..
للأسف.. استمرَّ بقائي في مكتب بيانكا يومين.. وليلتين..
حتى أتت الليلة الثالثة!
بينما كنتُ أعدل وسادتي كي أخلد للنوم في آخر المكتب..
ولا توجدُ أية إضاءة، سوى إضاءة مصابيح الشارع الخافتة..
كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة قبل منتصف الليل..

سمعتُ أصواتاً!

خفتُ كثيراً، فاختبأتُ خلف أكبر كنبة في المكتب..

دقائق ثم سمعتُ صوتاً يتكرر:

- سارة.. سارة.. أين أنتِ؟

فرفعتُ رأسي من دون أن أشعر، كي أنظر إلى مصدر الصوت..

استطعتُ بصعوبة أن أرى شكل الشخص.. كان ملثّماً!

أخافني كثيراً قبل أن يطلب مني الهدوء، ويعرفني على نفسه بصوت منخفض.. لا أصدق!

لقد كانت هاجر!!

تلثمت خوفاً من رصد كاميرات المكتب لها..

طلبتْ مني أن أتبعها بسرعة.. فوجدتُ نفسي متسمرة مكاني..

تذكرتُ تهديدات بيانكا لي، بنشرها لمقاطع الفيديو خاصّتي..

بالإضافة إلى أنني لم أعد أثق بهاجر، بعدما علمتُ حقيقتها..

اقتربتْ هاجر، وهي تحدثني بصوت منخفض:

- أرجوكِ يا سارة.. أعطني فرصة أخيرة فقط.. يجب أن تغادري هذا المكتب الآن.

وفي أقل من دقيقة قضيتُها في التفكير..

لم أكنْ أملك إلا أن أثق بها.. فالبحث عن النجاة..
يجعلنا نتعلق حتى بالقشة.. فتبعْتُها فوراً على الرغم من كل شيء..
كانت هناك سيارة تنتظرنا في الخارج..
ركبنا في المقعد الخلفي، وتحركنا على الفور..
كان من يقود السيارة صديقها، كما أخبرتني فيما بعد..
سألتُها وأنا قلقة:

- ما الذي يحدث يا هاجر.. ولماذا تفعلين ذلك معي؟
- سارة.. حاجتي للمال.. جعلتْ بيانكا تستخدمني في أعمالها وذلك بمراقبة ضحاياها.. ولقد كنتِ أنتِ الضحية هذه المرة في المعهد.. لم أكن أعتقد بأنني سأتعلق بكِ وأتعاطف معكِ كثيراً.

تصاعدَ في داخلي الغضب.. ولكنني كنتُ أتمالك نفسي.. قلتُ:

- وما الذي جعلكِ تتعاطفينَ معي أنا بالذات؟
- منذ أن تحدثتُ معكِ في المعهد.. شعرتُ أنَّ هناكِ شيئاً غريباً خلف قصتكِ.. وأنكِ أضعف من التعامل مع ناشطة مثل بيانكا فقمتُ بالتقصي وبالبحث، وعلمتُ أنكِ مجرد صورة.. وهي من تديركِ.. فتألمتُ كثيراً، فقررتُ مساعدتكِ.

- هل تعلمين شيئاً عن المقاطع التي تهددني بها؟
- هذه المقاطع هي سبب قراري بمساعدتكِ ضد بيانكا..
- لم أفهم؟!
- أنا من ثبَّتَ كاميرات التجسس الصغيرة جداً في غرفتكِ.. كنتُ أعتقد أنها من أجل مراقبتها لكِ فقط.. وليس لابتزازكِ.

ما أتعس شعور الخذلان!.. من الذين سمحنا لهم بالاقتراب..
من الذين وثقنا بهم.. وخدعتنا ملامحهم ومشاعرهم..
وثقتُ بهاجر.. حتى صدَّقتُ أنها فتاة كويتية..
وسمحتُ لها بالدخول إلى غرفتي، بكل صدر رحب..
لماذا كافأتني بكل هذه البشاعة؟!..

قدمتْ لي حقيبة صغيرة، وأخبرتني أنها كانت في غرفتي قبل قدومها إليّ.. ووضعتْ فيها بعض ملابسي وجواز سفري وجميع أوراقي المهمة..
نظرت إليها.. ثم قلت لها:

- كيف دخلتِ إلى غرفتي؟ بواسطة المفتاح الذي معكِ.. أليس كذلك يا صديقتي الوفية؟!

- كيف عرفتِ ذلك؟ لا يهمني يا سارة.. لا فائدة من الحديث.

فعلاً.. لا فائدة من الحديث بعد الخراب..

كان كل ما يقلقني حينها.. هي تلك المقاطع المصورة..

طمأنتني هاجر بأن بيانكا لن تستخدم المقاطع، لأنها لن تشوه سمعتها كمحامية.. فمعظم الناشطين والمحامين يعلمون بأنني معها..

هي أذكى من أن تنتقم بهذه الطريقة المتهورة..

أوصلنا صديقُها بالقرب من منزل سهى..

تعلم موقعه لأنها كانت تراقبني وتتبعني مثل الظل!

ثم ودَّعتني هاجر الوداع الأخير، وهي تقول:

- لكِ الحق إن لم تغفري لي أفعالي بحقكِ.. فلن ألومكِ أبداً.. لكنني أشعر أنني الآن مرتاحة الضمير.. آسفة يا سارة.

للأسف.. أملكُ قلباً ضعيفاً أمام مثل هذه المواقف.. لذلك..

وجدتُ نفسي لا أقوى على رفض اعتذارها.. فشكرتها فقط على تصرفها.. ثم نزلتُ من السيارة، وغادرت مع السائق من أمامي..

قلت في نفسي وأنا أراقب ابتعادها:

"يبدو أنه اللقاء الأخير يا هاجر.. كم هو محزن أسلوب حياتكِ"

توجهتُ مسرعة إلى منزل سهى..

ومن حسن حظي أنني وجدتُها ما تزال مستيقظة..

فرحتْ كثيراً برؤيتي، وكأنها غير مصدقة..

حيث علمتْ من ملامحي، أن هناك أمراً ما قد حدث لي..

فأخذتني مباشرة إلى منزل قريبها.. ورحبَ بنا مشكوراً..

بعد أن أوشك على فقد الأمل بي كما يقول..

نمتُ تلك الليلة في منزله.. أنا وسهى في غرفة واحدة..

كنت أحتاج إلى النوم فعلاً.. فلم يمهلني الأرق أي فرصة..

لقد نمت مباشرة كالميتة..

ولكن واقعي التعيس.. يأبى إلا وأن يستمر تعيساً!

لم أكمل قرابة الساعة وأنا نائمة بالقرب من سهى..

حتى شعرت بصوت بكاء غير واضح!

استيقظت.. ولم استوعب ما شاهدته.. كدت أن أُجن!

كانت سهى مكبلة اليدين ومغلقة الفم بشريط لاصق!!

وقبل أن تكتمل صدمتي.. التفت من خلفي يد ضخمة أغلقت فمي بإحكام.. كدت أن أختنق.. ثم التفت اليد الأخرى من تحت صدري وقام برفعي كي أقف.. ثم استدار حتى وقف أمامي ولا تزال يده تغلق فمي بقوة.. لم أصدق ما رأيت!

أخي مازن مرة أخرى!!

دقات قلبي تجاوزت السرعة الطبيعية.. أكاد يُغمى عليّ..

كيف وصل إلى هنا؟ كيف علم عن مكاني؟!

هل أخبرته بيانكا انتقاماً مني؟!

هجمت عليّ كل تلك التساؤلات، ولم تفارق نظرات مازن نظراتي.

همس لي بصوت مرعب جداً:

- لن يمنعني عنكِ أي أحد يا قذرة.. سوف تدفعين ثمن هروبكِ.

حاولت سهى الصراخ.. لعل وعسى أن يتدخل قريبها!

وحصل ما سعت من أجله.. اقتحم قريبها الغرفة..

ولم يتحرك مازن ساكناً!

ولم يتحرك قريب سهى أيضاً!!

لقد كان يضحك!

علمت حينها أنني وقعت في عملية استغفال جديدة!

لم استوعب هذا الخذلان الذي يفوق خذلان هاجر لي..

بكيت متوسلة بأن يتركني أخي مازن..

ولكنه أخرج سكيناً حاداً.. ولم يسمح لي بمواصلة توسلي..

حتى غرز سكينه في كليتي!

صرخت صرخة أرعبت كل من في الحي!!

ووجدت سهى تحتضنني وأنا ارتجف بقوة مفرطة ومخيفة..

لقد كان كابوساً!

بكيت حتى طلوع الفجر.. وسط محاولات سهى بتهدئتي..

كان كابوساً مرعباً.. لم أتوقع زيارته لي في هذه الليلة بالتحديد..

يبدو أن خذلان هاجر لي..

جعلني أعيش خذلان قريب سهى في أحلامي..

الحقيقة.. لم أعد أثق بأي أحد هنا في كندا.. أريد الخلاص فوراً..

في صباح اليوم التالي..
قام مشكوراً بتجهيز كل شيء يمكنه تجهيزه في بلادنا..
ثم أوصلني بنفسه إلى الأماكن التي أحتاجها في تورنتو؛
لأنجز كل شيء يخصني..
واشترى لي التذاكر بنفسه، على أقرب رحلة ممكنة..
واصلتْ بيانكا بحثها عني.. وكانت ترسل رسائل تهديد..
يبدو أنه قد جنَّ جنونها، بعد أن صدمت من جرأتي غير المعتادة..

بعد خمسة أيام فقط..

توجهتُ برفقة سهى وقريبها إلى المطار.. أوصلاني بنفسيهما..
وأخبرني بأن هناك بعض الموظفين في المطار سوف يستقبلوني في مدينة جدة استقبالاً خاصاً، كي ينهوا جميع أموري..
ثم سوف أنتقل في رحلة أخرى، إلى مدينة الرياض..
لم أصدق ما يحدث!..
فمثلما وصلتُ إلى هنا بسرعة غير مفهومة..
أجدُ نفسي أغادر المكان بسرعة مجدداً.. أيضاً غير مفهومة!
حضر موعد الرحلة، وأنهى قريب سهى متطلبات المغادرة..

حتى تأكد من صعودي إلى الطائرة.. ومن ثم مغادرة البلد!

لم يشغلني مصير جمال كثيراً..
ففي داخلي حقيقة بدأت تكتمل بشأنه..
خصوصاً بعدما تأكدتُ من ثبات التهم عليه.. لقد خذلني..
أيقنتُ أنه ليس هو الذي أحببتهُ من خلال هاتفي..
هذا شخص آخر تماماً لا أعرفه.. لذلك لا يهمني..
قدمتُ له كل شيء..
وحاولَ أن يضيّع كل شيء جميل في شخصيتي..
هربتُ من أهلي.. إلى الحب الذي فقدتهُ بينهم..
ووجدتُ نفسي قد هربتُ نحو الهاوية!
أيقنتُ حينها أن حياتي السابقة بكل تفاصيلها السيئة..
أهون من حياتي هنا، والتي أصارع فيها من دون نهاية..
ما يؤلم قلبي كثيراً..
أنني أجد نفسي مجبرة على الاختيار بين خياران سيئين؟!
أليسَ هناك خيارات أفضل؟.. من وضعني أمام كل هذا؟!

وجهتُ هذا التساؤل إلى السماء.. ولم أجدْها سوى صامتة!
أتمنى أن تتغير الأمور نهائياً.. وأن أجد إجابة وافية لأسئلتي..

لقد عدت.. بل هربت..
نعم هربت إلى حضن وطني.. بعد أن هربت منه!
عدتُ بعد شهور من الضياع..
ولم أصدق ذلك، حتى لامستْ قدماي الأرض..
أنا الآن بخير، ومتقبلة لكل شيء.. ولن أسهب في التفاصيل أكثر..
تركتُ خلفي فتيات غيري، يواجهنَ مصيرهنّ المجهول..
بعضهنَّ تأقلمْنَ، معتبراتٍ أنَّ ما يعشْنهُ هو نوع الحياة المثالية التي يبحثنَ عنها..
وبعضهنَّ الآخر، لديهنَّ المعاناة ذاتها، والخوف من العودة!

انتهى..

تمت في 1 أغسطس 2019

اقرأ في الخلف..

بعد فترة ليست بالطويلة من مغادرتي..

وقعتْ أزمة بين بلادي وبين دولة كندا، تخص التدخلات الكندية في شؤون بلادنا الخاصة.. تحت حجة الدفاع عن الحقوق..

وبعد الصبر الطويل.. أعلنتْ بلادي تجميد العلاقات مع كندا على الأصعدة كلّها!

تخيلتُ عندها، لو أنني رضختُ لابتزازات بيانكا جميعها..

وحضرتُ بعد ذلك المقاطعة* ..

ولم أعدْ.. لكانَ وضعي ربما، أكثر سوءاً وتعقيداً!

<<<<<

* "يستحق القراءة كاملا:

بيان صادر عن وزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية"

اطلعت وزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية على ما صدر عن وزيرة الخارجية الكندية والسفارة الكندية في المملكة بشأن ما أسمته نشطاء المجتمع المدني الذين تم إيقافهم في المملكة وأنها تحث السلطات في المملكة للإفراج عنهم فوراً.

وتؤكد الوزارة أن هذا الموقف السلبي والمستغرب من كندا يُعد ادعاءً غير صحيح جملة وتفصيلاً ومجاف للحقيقة، وأنه لم يبن على أي معلومات أو وقائع صحيحة وأن إيقاف المذكورين تم من قبل الجهة المختصة وهي النيابة العامة لاتهامهم بارتكاب جرائم توجب الإيقاف وفقاً للإجراءات النظامية المتبعة التي كفلت لهم حقوقهم المعتبرة شرعاً ونظاماً ووفرت لهم جميع الضمانات خلال مرحلتي التحقيق والمحاكمة.

كما أكدت الوزارة بأن الموقف الكندي يُعد تدخلاً صريحاً وسافراً في الشؤون الداخلية للمملكة العربية السعودية ومخالفاً لأبسط الأعراف الدولية وجميع المواثيق التي تحكم العلاقات بين الدول، ويعد تجاوزاً كبيراً وغير مقبول على أنظمة المملكة وإجراءاتها المتبعة وتجاوزاً على السلطة القضائية في المملكة وإخلالاً بمبدأ السيادة، فالمملكة العربية السعودية عبر تاريخها الطويل لم ولن تقبل التدخل في شؤونها الداخلية أو فرض إملاءات عليها من أي دولة كانت، وتعتبر الموقف الكندي هجوماً على المملكة العربية السعودية يستوجب اتخاذ موقف حازم تجاهه يردع كل من يحاول المساس بسيادة المملكة العربية السعودية، ومن المؤسف جداً أن يرد في البيان عبارة (الإفراج فوراً) وهو أمر مستهجن وغير مقبول في العلاقات بين الدول، وأن المملكة العربية السعودية وهي تعبر عن رفضها المطلق والقاطع لموقف الحكومة الكندية، فإنها تؤكد حرصها على عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول بما فيها كندا وترفض رفضاً قاطعاً تدخل الدول الأخرى في شؤونها الداخلية

وعلاقاتها بأبنائها المواطنين، وأن أي محاولة أخرى في هذا الجانب من كندا تعني أنه مسموح لنا بالتدخل في الشؤون الداخلية الكندية.

ولتعلم كندا وغيرها من الدول أن المملكة أحرص على أبنائها من غيرها، وعليه فإن المملكة تعلن استدعاء سفير خادم الحرمين الشريفين في كندا للتشاور وتعتبر السفير الكندي في المملكة العربية السعودية شخصاً غير مرغوب فيه وعليه مغادرة المملكة خلال ال (24) ساعة القادمة، كما تعلن تجميد كافة التعاملات التجارية والاستثمارية الجديدة بين المملكة وكندا مع احتفاظها بحقها في اتخاذ إجراءات أخرى.

المصدر: واس.. صدر في 5 أغسطس 2018